



كتاب



كنت أحياناً حياة حاديت.. مثلث قاماً..  
أحلامي بقى أحلاماً لا تتحقق ..  
ونفأة وجدرتني نفسي هناء ..  
منحساً بمحاجي في أعماق أحلامي ..  
أعيشها بكلمات تناصيلها.. واحداً تلو الآخر ..  
يسهل أن يكون كل هذا مجرد حلم أو وهم ..  
فأنا لم أشعر بالحقيقة من قبل كما شعرت بها هناك ..  
لم يتبقي لي (الذى سوّى حلم واحد فقط) ..  
أنه أعود إلى حياتي (المفاضلة) ..  
أنه أعود من هناك ..

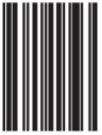


٤٥ - رس. 7.99 GBP - 9.99 EUR - 9.99 USD

ISBN 9789948205807



> 51199



9 789948 205807



إبراهيم عباس

Digitized by srujanika@gmail.com

هُنَاكَ



إبراهيم عباس

@ibraheem\_abbas



جميع الحقوق محفوظة © 2014

ISBN: 9789948205807

متوفرة باللغة الإنجليزية Available in English

إبراهيم عباس

⑦ يتخيلون، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عباس، إبراهيم

هُنّاك. /إبراهيم عباس، - جدة، ١٤٢٥ هـ

٢١٤ ص: سـم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٥٤٨٣-٨

١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان

دبيوي ٨١٣، ٠٣٩٥٣١  
١٤٣٥/٥٦٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٥٦٦٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٥٤٨٣-٨

هُنَاك



The League of Arabic SciFiers

إبراهيم عباس.. مبدع إعلاني، وكاتب سينمائي، شارك المهندس  
ياسر بهجت في تأسيس رابطة يتخيلون التي تهدف إلى نشر  
ثقافة الخيال العلمي العربي وإثراء محتواها ومخرجاتها  
والارتقاء بها بشكل يؤهلها للتنافسية العالمية.

[www.yatakhayaloon.com](http://www.yatakhayaloon.com)

info@yatakhayaloon.com @yatakhayaloon www.hnak.com



هُنَاكُ

إلى كل من أكرمني بقراءة رواية حوجن ..

أنا مدين لك ..

ومن أجلك كتبت رواية هُنَاكُ!



هُنّاك

## قبل أن تسألوني..

روايتي السابقة بطلها جني شاب في بدايات التسعين من عمره، محترف في استخدام الآيپاد ويهمه قيادة اللامبورغيني؛ ومع ذلك انهالت على التساؤلات إن كانت القصة حقيقة. هذا السؤال بالذات هو أكثر سؤال يسعدني! وقبل أن تسألوني عن رواية هُنّاك اسمحوا لي أن أجيب مسبقاً:

نعم! أعترف أن هذه القصّة حقيقة إلى حد كبير جداً..

وأنني قد استلهمت جميع تفاصيلها من بطلها مباشرة..

ومن العالم الذي صنعته لي بحِبّها، وأشرفَت عليه بقلبه..

وهذه ليست سوى محاولة مني لصياغتها على الورق!..

إبراهيم،

إبراهيم عباس

هُنَاك

## على عِجالة..

أعترف أنني أكتب بكل تلقائية، هدفي الأهم هو إمتعكم، مع العشم بأن تحمل سطوري بعض الفائدة؛ أكتب بأسلوب تصويري يمزج بين الرواية الكلاسيكية والنص السينمائي، وبالتالي فإن الحدث عندي أهم من الحديث، لا أتخمه بزيادة التوصيف، ولا أتركه عُرضة للجفاف والهُزال، فالخيال مناصفة بين وجدانكم والأحداث التي أبدل ما بوسعي لتدمجوا مع تفاصيلها كما هي؛ أنقل ما قيل كما قيل دون أن أتدخل بدبالة. بطل القصة هو المتحدث، لا أجرؤ على مصادرة أسلوبه ولهجته وانفعالاته وإعادة صياغتها بطريقتي أنا، لأنني وببساطة لا أريدكم أن تكتفوا بقراءة الكلمات دون أن تشاهدو الحدث وتعايشوا التجربة.

لذا أقدم اعتذاري المسبق إلى كل من قد يتقاضأ بوجود عبارات بهجات أصحابها الدارجة بين السرد الذي أحرص أن يكون بالقرشية (الفصحي)، وإلى كل من قد يجد في روايتي اختلافاً عمّا اعتاد عليه من أعمال أدبية هدفها الأساس هو التقنن في الصياغة اللغوية، وأنها عبارة عن تجربة تصويرية تهتم بتبسيط العبارات كي تتضح المشاهد.

والآن.. اسمحوا لي بأن أترككم مع تجربة.. هُنَاك..!

إبراهيم عباس

هُنَاكَ

(1)

أَنَا ؟ ! هُنَاكَ ؟

إبراهيم عباس

هُنَاك

وأخيراً.. قلم!

قلم غريب عجيب، ككل شئ رأيته هنا، قطعة مصممة منحوتة  
بنقوش متداخلة في منتهى الدقة والروعة تستمر بنفس النسق  
على رأسه المعدني، ترسم ألف لوحة في طرفه المدبب بالزخارف  
الذهبية والبرونزية..

قلم يغري الأنامل بالكتابة، حبره يغازل الورق، ينساب بالعبارات  
وكانه يعرفها مسبقاً، يكاد ينطق بالكلمات قبل أن يكتبها.

طلبته منها فأحضرته لي على الفور..

سأخبركم عنها، لا تستعجلوا..

ولكن الآن لا بد أن أكتب..

لا بد أن أتذكر..

ولكي أتذكر يجب أن أدون كل شئ!

إبراهيم عباس

حسنٌ، لا أعلم إن كانت كلماتي هذه ستجد من يقرؤها، لا أعلم إن كنت سأتذكرها بعد كتابتها، ولكن يجب أن أدون كل شئ يحصل لي منذ اللحظة التي وجدت نفسي فيها هنا، اللحظة التي لا أستطيع تذكر أي شئ قبلها!

فتحت عيني فرأيت سقف الغرفة الذي يرتفع لمسافة عشرة أمتار على الأقل، ومقعر مكوناً قبة كريستالية شفافة عليها رسوم عجيبة، لولا الرسوم لما عرفت أن هناك قبة أصلاً، ليست قبة واحدة وإنما مجموعة من القباب المتمازجة، أستطيع تمييز القبة الرئيسية في المنتصف، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربع قباب أخرى متباينة. تتدلى من القباب خيوط رفيعة جداً تنتهي بكرات متلائمة تضئ الغرفة بضوء سحابي خافت. تتأرجح بدلال بسبب تيارات الهواء التي تداعبها. أستطيع أن أرى السماء من خلف تلك الكريستالات الكروية العملاقة، لون أزرق صاف، لا تقاطعه سوى بعض السحابات القطنية التي تسبح فوقها بكل تكاسل والعصافير التي تترافق قليلاً في الهواء قبل أن تأخذ استراحتها على أطرافها.

هُنَاكْ

لَا أعلم كم ظلت على هذه الحال، دقائق؟ ساعات؟ كانت عضلاتي جميعها في حالة استرخاء لذذ؛ وعيوني مفتوحة، تحاول استيعاب جمال ذلك السقف، بينما يحاول عقلي استيعاب الوضع، بلا جدوى! اعتصر كل خلية في دماغي لأنذكر أي شيء، بلا فائدة! من أنا؟ ما اسمي؟ من أين أتيت؟ ما الذي أتى بي إلى هنا؟ ما هو هذا المكان أصلاً؟

فشلت جميع محاولاتي للتذكر فقررت أن أرغم عضلاتي على النهوض.. كنت متعرجاً في سرير أبيض بملمس مخملي ناعم، يتشكل حول جسمي دون أنأشعر به، يحتويني كأنه قالب من القشطة، لم يكن هناك سوى ذلك السرير في وسط الغرفة، تلفت حولي، هذه ليست غرفة وإنما.. ساحة.. ساحة دائيرية شاسعة، قطرها لا يقل عن عشرين متراً.

تذكرت! أين نظاري؟!.. نظري أضعف من أن يتجاوز مترين أمامامي! تحسست حولي باحثاً عنها، تحسست وجهي فلربما أجدها مختبئاً على أنفي كعادتها..

إبراهيم عباس

ولكن انتظروا لحظة..! كيف استطعت رؤية كل شئ بوضوح؟ أنا  
بدون النظارة شبه كفيف!

وقفت على الأرض، شعرت ببرودة خفيفة تسرى إلى جسدي عبر  
أقدامي ولاحظت شيئاً عجيباً، الأرض تبدو بعيدة عنى.. أو.. لا  
لا مستحيل! أظن أنني أطول قامةً..! لا أذكر أنني بهذا الطول  
أبداً! طولي لا يتجاوز متراً وخمسة وستين.. تشمل حذائي  
السميك وشعري المنكوش!.. وزني يتجاوز الـ.. رفعت طرف  
القميص الأبيض الذي لا أعلم من أين أتنى هو الآخر لألقي نظرةً  
على كرسي التي اعتادت أن تحجب عنى رؤية أقدامي فيما عدا  
أطراف أصابعى.. و.. يا إلهي!! لقد تحولت كرستي الرجراجة  
إلى ستة مربعات أنيقة مشدودة تزينها صرة أستطيع رؤيتها بدل  
تلك الهوة التي لا أذكر أنني رأيت قاعها يوماً. تحسست جسمى،  
اكتافي صدري عضلاتى، من أين لي كل هذا؟!

كنتأشعر بخفة عجيبة، أعتقد أننى ظلمت الجاذبية الأرضية  
طوال حياتي، اكتشفت أن كرسي هي التي كانت تشطفني بقسوة  
للأسفل!

هُنَاكْ

مشيت على الأرض، بيضاء ملساء باردة قليلاً، ما هو مصدر تيارات الهواء؟ هل هناك فتحات تبريد؟ ولكن لا أثر لهدير أجهزة التكييف، في الواقع الأصوات الوحيدة التي أسمعها هي أنفاسي و.. نعم بالكاد أسمع أصوات المدينة.. لا ليست كالتى اعتدت عليها: سيارات وزحام وضوضاء؛ فقط أصوات مجموعة من الناس، رجال ونساء وأطفال تأتى من بعيد، قاطعها صوت موسيقى، سلبتني من قمة الدهشة إلى قمة الانسجام، انبعثت في الغرفة بكل هدوء وفاحت مع الأنغام رائحة عطرية سيطرت على توتي وأرغمتني على إغلاق عيني وشفط جرعة من الهواء في نفس عميق أنعش رئتي. اتجهت نحو الحائط الدائري الذي زينته ستائر، لاحظت تحرك بعضها، من هنا تتسلل تيارات الهواء إذاً! لا بد وأن خلفها باب! كيف أفتح هذه ستائر؟ أين الأزرار والمفاتيح؟ سحقاً! لماذا لا أجد أي كتيبات إرشادية للتعامل مع الأشياء هنا؟ اضطررت لأن أستخدم أكثر الحلول بدائية، فرفعت ستارة ومررت من تحتها و... آه ما هذا؟ اكتشفت أن الغرفة متصلة بشرفة بنفس مساحتها تقريباً، تطللها بعض الشجيرات المتسلقة المزينة بأزهار تتنافس بجمالها وألوانها وروائحها، أنسستي العطر الذي أسكربني قبل قليل.

الشرفة معلقة على قاعدة كريستالية شفافة، لولا المقدان والطاولة في طرفها لظننت أنها بلا أرضية. وضعت قدمي الأولى بحذر خشية الوقوع، وشجّعت قدمي الأولى أختها، نظرت حولي، كنت على ارتفاع شاهق، بالكاد أستطيع تمييز تفاصيل الأرض من تحتي والناس يمشون عليها كالنمل؛ نظرت خلفي لأرى هذا المبني الذي وجدت نفسي فيه لعلي أجد أي علامة أو لوحة، كان عبارة عن برج مغطى بالكامل بزجاج أملس بدون أي فواصل أو نوافذ، تحفة كريستالية عملاقة تنتهي بقبة شفافة هائلة الحجم أستطيع رؤية الأجواء الاصطناعية بداخلها: أشجار، أزهار، مبني، كأنها مدينة مصغرة معلقة في السماء؛ وحول البرج الرئيسي تناشرت أبراج أخرى أقصر تنتهي بقباب أصغر مثل التي وجدت نفسي فيها؛ قاعدة هذه الأبراج عبارة عن حديقة منسقة بشكل رائع تتخلل وساحها الأخضر المرصع بالأزهار الملونة طرقات للمشاة ومبانٍ صغيرة متناشرة وثلاثة ممرات مائية عليها بعض الزوارق؛ تصب في خليج ممتد في الأفق الذي ارتفعت من خلفه أبنية مدينة هائلة، أشبه بإحدى مدن المستقبل في روايات الخيال العلمي.

هُنَاك

الآن تأكّدت أنّي في حلم واضح! كنت متيقّناً أنّ توغلي في مواضع الإسقاط النجمي والأحلام الجلية سيؤثّر يوماً على دماغي، وهأنذا محبوس في أحدها! سوف أستيقظ بعد قليل، ويزول كلّ هذا.. لا بدّ أنّ أستيقظ! حاولت جاهداً أنّ أفتح عيني، أحملق بهما بكلّ قوّة لاستيقظ.. قرصت نفسي.. عضضت يدي وفجأة..

طُرق الباب..

سمعت طرقات رقيقة وصوت فتاة أرقّ:

"تسّمح لي أدخل؟"

ارتبتّكتُ جداً.. لا ذكر أي علاقات تربطني بالجنس اللطيف سوى بعض العبارات السطحية العابرة على الإنترنّت.. تذكريت! لقد كنت ميالاً للانطواء، خجلي يتضاعف من فرط بدانّي وقلة وسامتي، ولكن لا داعي للخجل هنا، كلّ شئ اختلف! إنّي أعيش الآن في داخل حلم.. مجرد حلم! وسوف أستغلّه قبل أن يستيقظ صاحب الكرش الرّجراجة! استغرقت أفكاري وقتاً أكثر من اللازم فعادت الطرقات وهرّعت إلى الغرفة أبحث عن الباب في الجهة المقابلة للستائر؛ سحقاً لهذا الجدار المصمت المستفز!

لا أثر فيه لباب ولا أكمة ولا حتى ثقب مفتاح؛ عادت الفتاة تستأذنني فارتبت أكثر، وقررت أن أسمح لها بالدخول وعليها أن تتصرف هي لإيجاد الباب فقلت بجدية مصطنعة وفردت قامتى وشفطت كرسي لا شعورياً وأنا أقف أمام الجدار:

"تفضلي..!"

ارتفع جزء في الجهة الأخرى من جدار الغرفة بهدوء، فبدوت كالألبه وأنا أقف بحزم أمام الحائط المقابل الذي خمنت أنه الباب؛ التفت إلى ذلك الجزء وإذا بها مندفعة نحوه تهتف بلهفة:

"حسام.. حسام!! ما تخيل قد إيش وحشتني!!"

حسام؟.. حسام!!! صحيح تذكرت!! اسمي حسام..! فاجأتهي بتعلقها برقبتي واحتضانها لي بقوة وانهمار دموعها التي انسابت بين خدها وخدي، لم أتحمل المفاجأة.. طبعاً لم أتحملها! أعرف أنني قد أصاب بنوبة اضطراب عاطفي مصحوبة بتلبك معوي وشلل مؤقت لو ابتسمت لي فتاة عادية وقالت "كيف حالك"؛ ما بالكم بإنسانة تحضنني وتقول "وحشتني وحشتني"؟!

هُنَاكْ

إنسانة؟ يستحيل أن تكون هذه المخلوقة إنسانة أصلًاً ! تتصلت من حضنها وأنا أتمزق حسرةً وخجلا، رأيتها أمامي بوضوح.. لم تبعد وجهها كثيراً عنِّي، سنتيمترات قليلة تفصل بين ذهولي وابتسامتها، تلك المسافة الضئيلة لا تكفي العين في العادة للتركيز وتمييز الملامح، ولكن جمالها تحدّى جميع القوانين البصرية، رأيتها بكل وضوح، عيناهما ملأتَا أفقِي، تسخران من زرقة البحر وسعته وأعماقه، مرآتان للسماء،ولي.. ميّزت صورتي المنعكسة فيهما، شعرت من نظرتها المتلهفة أن صورتي تلك ليست مجرد انعكاس، شعرت أنها تحملني في عينيها أينما ذهبت، كلما فتحتهما، وكلما أغمضتهما. إن استرسلت في وصفها فلن أكمل كتابة قصتي أبداً! باختصار جمالها يتجاوز جمال أجمل مخلوقة رأيتها أو تخيلتها في حياتي! لو بحث أحد عن أسرار الجمال فستقبحها ابتسامتها، ولو سأّل عن معنى الأنوثة فسيكون قوامها الإجابة النموذجية!

لم تخفِ ضيقها من تتصلي.. ولكنها احتفظت بابتسامتها المرحة ومسحت دمعتها برسغها بشكل طفولي وألقت بنفسها على السرير ففاقت فيه قبل أن يتبعها ثوبها الحريري الأبيض الذي هبط عليها ببطء وتطلعت للسقف وهي تقول بسعادة:

إبراهيم عباس

"طول عمري يا حسام بأحلم بهذي اللحظة! إني أشوفك

قدامي.. أكلمك.. أحضنك!"

ما هذه الفتاة المبتذلة؟ مع احترامي الشديد لجمالها الذي لا يختلف عليه اثنان، كيف تدخل غرفة شاب بمفرده، لا تعرفه ولا يعرفها؟ وتحضنه! وترتمي على سريره!! ناهيك عن سفورها وتبرجها وملابسها!

لحظة لحظة.. من قال أنها لا تعرفني؟ لقد نادتني باسمي، في الواقع لم أتذكر اسمي إلا منها! استجمعت شجاعتي الكاذبة وصرامتي المصطنعة وأنا أقول:

"واضح إني فقدت ذاكرتي، وإنك تعرفي أشياء كثيرة

"عني وعن هذا المكان.. ممکن لو سمحتِ توضحي لي؟"

"لا ياشيخ؟! عامل لي فيها الرَّجُل الحِمْش!"

قالتها وقامت من السرير وساحت بي من يدي نحو الجهة

الأخرى من الحائط وهي تقول:

هُنّاك

"لا تستعجل، رح تعرف كل حاجة في وقتها. أنا ميّته من الجوع، خلينا نروح نأكل دحين، أنا عازماك على مطعم جديد أكيد رح يعجبك!.. بس لازم تغير ملابسك أول!"

مررت بأناملها بحركة انسانية على جزء من الحائط وكأنها تداعب شاشة كمبيوتر لوحى، فانفوج على مصراعيه؛ لقد كان يخفي خلفه خزانة ملابس فيها عشرة أضعاف كمية الملابس التي لبستها في حياتي، مع فارق النوعية طبعاً!

نقرت بأناملها على طرف الحائط فأضاعت الخزانة من الداخل؛ اكتشفت أنها ليست خزانة، وإنما معرض متكامل يضم أرقى الماركات العالمية.. سحبتي من يدي إلى داخل تلك الخزانة وتنقلت بين صفوف الملابس المعلقة بمرح:

"هاه تحب تختار بنفسك؟.. ممم وللا أقول لك.. خليني  
أنا اختار لك أحسن"

أخذتني إلى علاقة ارتصت عليها قمصان پولو بجميع ألوانها وسحبت القميص الأبيض، ناولتني إياه:

"پولو أبيض.. قميصك المفضل صح؟"

إبراهيم عباس

تناولته، تفحصته، بحثت عن شارة المقاس، فقد تكون هذه هي اللحظة التاريخية التي أستطيع أن أحشر فيها نفسي داخل ملابس لا تحمل حرف ل دون أن تتمزق إرباً؛ وعندما لم أجدها أسعفتني حماقي بهذا السؤال:

"هذا مقاسي؟"

قهقهت وهي تقول:

"لا مقاسي أنا! طبعاً مقاسك! كل شيء هنا مفصل على  
مقاسك بالضبط!"

قالتها وهي تتناول جينز أرمني وجوارب بول سميث وحذاء لوبي فيتون.. كلما اختارت شيئاً ازداد اشتعال ذاكرتي، هذه هي ملابسي المفضلة التي ادخرت مكافآتى الجامعية لبضعة أشهر حتى أحصل عليها وقت التخفيضات! توجهت إلى إحدى الأدراج وأطل بريق الذهب والبلاتين والألماس عندما فتحته؛ مجموعة مذهلة من الساعات ذات الأ ساعار الفلكية، تناولت إحداها وقالت:

"هذا الرولكس ياخت ماستر اللي نفسك فيها صح؟"

هُنّاك

فعلاً كيف عرفت؟ لقد سال لعابي أنهاراً على هذا الشئ الذي حتى لو قررت ادخار كل مكافآتى الجامعية بالإضافة إلى مصادر دخلي الأخرى واكتفيت بتناول الماء وفتات الخبز لعدة سنوات.. فلن أستطيع شراءها! تناولت معصمي لتلبسني الياخت ماستر!

"شاييف كيف تجنن على إيدك؟.. يلا بسرعة.. غير

"باقي ملابسك، يادوب نلحق المطعم؟"

بالجرأتها! تريدين أن أغير ملابسي أمامها؟ لا يمكن! مستحيل!  
نظرت إليها باستكفار فقالت:

"إيه؟ مكسوف مني؟ أوكي مو مشكلة.."

قالتها واستدارت للناحية الأخرى كي لا ترانى.. ولكن هيهات!

"طيب؟ وبعدين؟ كيف تبغيني أغير وانت هنا؟"

"ليه؟ تستحي مني؟"

"لا تحلمي! مستحيل أغير ملابسي وانت هنا! حتى لو  
كنت أمي!"

ضحكـت وخرجـت وهي تقول:

إبراهيم عباس

"طيب طيب.. بس بسرعة لا تتلку! حاستاك براً عند  
الباب.."

لم ألمس ملابسي حتى تأكّدت من أنها خرجت والباب أغلق  
 تماماً؛ اختفت ملامح الصرامة المفتعلة من وجهي في لحظتها،  
 لأفسح المجال لملامح الانبهار مع بعض اللعاب وأنا أستمتع  
 بملابسي وبالياخت ماستر..

"حسام؟ خلّصت؟"

"إياكِ تدخلني!"

يجب أن أغير ملابسي بسرعة قبل أن تتهور هذه المجنونة وتدخل  
عليّ!

"حساااام؟ خلّصت وللا لساً؟.. أدخل؟"

انزلقتُ داخل الجينز بسرعة وسلامة لأول مرة في حياتي، لم  
أضطر لأن أتقافز وأؤدي رقصتي المعتادة: "احشرونـيـداخلـ  
هذاـالجينـزـالعينـ"، ليس لدى وقت الآن للالحتفال باختفاء كتل  
الدهون وأرطاف الكوليسترول؛ أغلقتُ أزرار الجينز في اللحظة  
التي افتحمت فيها تلك الوقحة الغرفة وأطلّت برأسها:

هُنَاك

"هَاهِ خَلَّصْتِ لِبِسِكِ يَا عِرْوَسَةَ وَلَلَا تَحْتَاجِي مِسَاعِ..  
أَوْوَهُ وَالاَّوِ إِيَهُ الْوَسَامَةُ دِي كُلَّهَا؟.. مَمْ بَسْ تَعْجِبَنِي  
أَكْثَرُ لَمَا تَشْمَرُ أَكْمَامَكِ.."

قالتها وشمرت أكمامي وتعلقت بذراعي كالطفلة، انطفأت أنوار  
الخزانة وانغلق بابها وكذلك باب الغرفة تلقائياً فور خروجنا،  
ومشيـنا في ردهة كريستالية شفافة يـسـير السـحـاب بـمحـاذـاتـنا  
أحياناً، ويغمـرـنا أحـيـاناً آخـرـى؛ التـفـتـ النـبـاتـاتـ منـ حـولـنـاـ، وـتـسـلـلـ  
بعضـهاـ إـلـىـ الدـاخـلـ لـتـفـرـشـ أـزـهـارـهاـ فيـ أـرـضـيـةـ الرـدـهـةـ وـعـطـرـهـاـ  
فيـ أـجـوـائـهـاـ..

"تختار أي لون يا حسام؟"

باغتـتـيـ بالـسـؤـالـ، وجـثـتـ عـلـىـ رـكـبـيـهاـ قـبـلـ أـجـبـبـهاـ، التـقطـتـ  
إـحـدىـ الأـزـهـارـ وـدـسـتـهـاـ بـيـنـ خـصـلـاتـ شـعـرـهـاـ وـبـرـعـمـتـ زـهـرـةـ آخـرـىـ  
مـكاـنـ الزـهـرـةـ المـقطـوفـةـ وـبـدـأـتـ تـفـتـحـ بـبـطـءـ..

"هـاهـ.. إـشـ رـأـيـكـ؟ يـاـ تـرىـ الـبـنـفـسـجـيـ لـاـ يـقـ عـلـىـ لـونـ  
شـعـرـيـ وـمـلـابـسـيـ؟ كـذـاـ شـكـلـيـ أـحـلـيـ صـحـ؟"

فيـ الـوـاقـعـ الزـهـرـةـ هيـ الـتـيـ أـزـدـادـتـ جـمـالـاًـ وـرـونـقاًـ وـسـعـادـةـ بـحـظـهـاـ.  
الـذـيـ أـسـكـنـهـاـ بـيـنـ خـصـلـاتـهـاـ.

إبراهيم عباس

تخلّيت عن بعض ثقالة دمي وأنا أهتز رأسي موافقاً مع ابتسامة رصينة. وصلنا إلى المصعد الذي كان مصنوعاً من الزجاج هو الآخر، انفتح بابه تلقائياً مع اقترابنا وانغلق بعد دخولنا إليه، لأول مرة في حياتي أرى مصدعاً بمقاعد، تحفتان محملتان معلقتان على الزجاج، جلسنا عليها فبدأنا رحلة النزول، كان في الواقع أشبه بالسقوط ولكنني لمأشعر بالدوار ولا بالتفاف أمعائي حول نفسها، فقط شعرت برعوب طفيف وأنا أرى كل ما حولي تحول إلى خطوط رأسية من خلال الزجاج، والأرض تقترب بسرعة لكنها لم تلبث أن تباطأت عندما وصلنا لبها ذلك المبني؛ كان البها دائرياً تتوسطه نافورة عالية جداً تجلس حولها ثلاثة فتيات تعزف كل منهن على آلة موسيقى عجيبة تشاركن فيها أصوات انسيات المياه، هذه هي الموسيقى التي تسليت إلى غرفتي.

رمقني الفتيات بابتسامات خجولة وتحمّسن في العزف عندما مررنا بمحاذاتها، تداعب كل منهن آلتها بشغف وترمقني بطرفها وكأنها تعزف من أجلي أنا فقط. خرجنا من بوابة المبني الرئيسية فرأيت أمامي فرساً بيضاء، خصلات شعرها ذهبية مضفرة ومزينة بخرزات ملونة، تكاد تلمس الأرض من طولها.

هُنَاكْ

"هاه.. تحب تسوق أو أسوق أنا؟"

ياللإحراج الشديد! كيف سأسيطر على شئ كهذا؟ سيطرتي  
وخبرتي لا تتعدي شريكة حياتي: الكامري الرصاصية! يجب أن  
أتهرب بدبليوماسية:

"كل هذى التكنولوجيا وفي النهاية نركب حصان؟  
توقعتك حتركبيني صاروخ!"

فشلـت مناورـتي! فقد أحـرجـتـي بـضـحـكتـها وـهـيـ تـقـولـ:

"أولاً لازم تفرق بين الحصان والفرس، ثانياً من جدك  
إنت تبغى ترکب صاروخ؟ أول مرة في حياتك تخرج مع  
بنت وتبغـاها ترکب صاروخ بـدلـ الخـيلـ؟ علىـ العمـومـ  
إـحـناـ ماـ نـحـبـ نـخـربـ الـهـدوـءـ فيـ المـدـيـنـةـ بـالـآـلـاتـ،ـ وبـعـدـينـ  
لاـ تـتـسـرعـ فيـ الـحـكـمـ عـلـىـ الـفـرـسـ صـدـقـنـيـ رـحـ تـسـيـّـكـ  
الـصـوارـيخـ"

"الـحـقـيقـةـ آخرـ مـرـةـ رـكـبـتـ خـيـلـ كـانـتـ..ـ"

"ـعـارـفةـ عـارـفةـ.. لـمـاـ كـانـ أـبـوكـ يـمـشـيـكـ عـلـىـ الـكـورـنيـشـ  
وـأـنـتـ صـغـيرـ وـتـرـكـبـ مـعـ أـخـتـكـ عـلـىـ الـخـيـلـ القـزـمـ"

إبراهيم عباس

تاباً لها! كيف عرفت؟ فتحت الحزام الذي يثبت سرج الفرس وألقت به بعيداً، ثم أمسكت بخصلاتها ووثبت عليها بمهارة، لم يُعِق ثوبها الحريري مرونة حركتها بسبب الفتاحة الطويلة في جانبه، مدّت إلي يدها وهي تقول:

"ما أحب السروج!.. يلا ناولني يدك تأخينا!"

ظهر الخيل يكاد يصل لمستوى ذقني، كيف استطاعت فتاة برقتها أن تقفز عليه بهذه السهولة؟ أمسكت بيدها وقفزت على ظهر الخيل خلفها، كنت في قمة الإحراج والارتباك، ولكنها عندما شددت خصلات الفرس انطلقت بسرعة أنسستي الإحراج وأرعبتني فتشبشت بها بقوة وأغرق شعرها النحاسي الثائر في الهواء وجهي، انطلقنا بمحاذة المجرى المائي عن يميننا والحدائق عن شمالنا والسماء من فوقنا ترتدي ثوبها الأرجواني المطرز بالذهب.

إن كان هذا حلمأً فعقلني الباطن يستحق جائزة الأوسكار بجدارة! عندما أستيقظ سأكافئ نفسي بإجازة لا أفتح فيها عيني، أبقيهما مغمضتين لكي أمنع تبخّر هذا الحلم قدر الإمكان.

هُنَاكَ

ولكن، هل يُعقل أن يكون هناك حلم بكل هذه التفاصيل وهذا  
الوضوح؟ وإن كان حلماً جلياً هل يُعقل أن يكون ملماوساً أكثر من  
الواقع؟ لو لم يكن هذا حلماً فماذا يكون؟ كيف سأعرف أين أنا؟  
وما الذي أتى بي إلى هنا؟!

لا أحد يملك الإجابات سواها ..



هُنَاكَ

(2)

هُنَاكَ .. مَعَ مَلَكٍ



هُنَاكْ

بدأت ذكرياتي تتتساقط ك قطرات مطرٍ خفيف يتردد  
صداها داخل وعاء عقلي، كل قطرة تغري باقي صديقاتها كي  
تقفز معها لتهمر وتروي بعض الخلايا في ذاكرتي.

أنا حسام.. حسام خالد الشريف، والدي متوفي منذ خمس  
سنوات بسرطان البنكرياس، رحمة الله عليه. والدتي عفاف  
النهدي.. أسأل الله أن يمن علينا بطول العمر والعافية؛ أعيش  
معها ومع أخي الصغرى مرام.. تخرجت من جامعة الملك  
عبدالعزيز قسم علوم حاسب آلي قبل سنة وسبعة أشهر، وأعمل  
في وظيفة هامشية في شركة مقاولات. حياتي متواضعة جداً لا  
تسمح لي سوى بأن أكبح وأحلم دون أن أرى أيّاً من أحلامي تلك  
يتتحقق. والدتي انشطرت بعد وفاة والدي لتقوم بالمهنتين: مهمة  
الأم والأب معاً؛ تعمل كمدرسة نهاراً وبائعة معمول مساءً ومربيّة  
على مدار الساعة. أما مرام فطلقة أنهت للتو دراستها الثانوية  
وحملت على كاهلها أحلاماً وهموماً لا تعترف بسنها ولا بأنوثتها  
ولا بظروفها. كل ما تذكرته لا يمت بأي صلة لهذا الزمان ولا  
المكان ولا حتى الشخص الذي أحدث نفسي من داخل عقله  
وجسده!

إبراهيم عباس

لم أتذكر سوى الخطوط العريضة في حياتي، ولكنها تقطعت فجأة لأجد نفسي في هذا المكان، قصور وحدائق وأنهار وملكة جمال تخطبني على حewan أبيض، جميع الأحلام التي يمكن أن تخطر ببال أي شخص، تجسدت بحذافيرها هنا..

ولكنني في هذه اللحظة لا أحلم سوى بالعودة إلى أمي وأختي، أريد أن أطمئن عليهم، أريد أن أعود أنا.. حسام القصير البدن الأسود الذي يشقى في وظيفة متواضعة ليعول أمه وأخته.. ويحلم أحلاماً لا تتحقق!

"من جد ابن آدم عجيب!"

قاطعت حبل أفكاري وهي تبطئ من سرعة الفرس، وكأنها كانت متربعة داخل دماغي في أثناء حديثي مع نفسي، وواصلت متجاهلة تعجبني:

"دائماً يجري ورا سراب أحلامه، ولمّا تتحقق ينسى  
لهفته عليها؛ يطئّشها ويجري ورا غيرها لا"

ألجمتني دهشتني من مداخلتها واندهاشي من المناظر التي بدأت أستوعب تفاصيلها عندما تباطأت خطوات الفرس. توغلنا داخل أحياط المدينة، مساكن متناشرة ملمسة بالزجاج والنباتات والقليل من القرميد والخشب.

هُنَاكَ

تلك المباني رفضت أن تتطاول على الطبيعة الرائعة حولها بالرغم من تصميماتها الحديثة، لم تجرؤ حتى أن تعزل نفسها خلف أي جدران، وسكنها يستمتعون بالجلوس بجوارها، يتسامرون، يحتسون، يقرأون، يراقبون صغارهم وهم يلعبون بين أحضان كل ذلك الجمال. كانت الفرس تتبعثر بين الممرات وكان الناس يلقون علينا التحية وكأننا ملوك ذلك المكان. هل يُعقل أن تكون جميع هذه التفاصيل مجرد حلم؟ ما أراه هنا أوضح حتى من حياتي الأصلية!.. انحرفت بالفرس إلى ناحية المجرى المائي مختربة ممراً من الأشجار المتشابكة اختفت خضراء أورقها وتجاعيد جذوعها العملاقة خلف أزهارها القرمزية الكثيفة، قادنا الممر إلى بوابة لجزيرة صغيرة تطفو على سطح الماء؛ استقبلنا رجل ضخم يرتدي بدلة مخملية بنفسجية داكنة وعليها معطف جلديبني طويل بلون بشرته شديدة السمرة ومطرّز بنقوش ذهبية في أطراقه، تراحت هيبيته المرعوبة عندما امتزجت بابتسماته الودودة، أخذ بطرف خصلة الفرس المضفرة وقادنا بهدوء عبر خمس درجات رخامية بيضاء انتهت بـ ممر طويل طرق حوافر الفرس أرضه المصقوله بخطوات بطيئة إلى أن وصلنا لقاعة كبيرة صاخبة فنزلنا عندما توقفت الفرس على عتبات المدخل ..

"طاولتكم ممحوّزة في أميريكانو غريل"

قالها العملاق البشوش وهو يتقدمنا في تلك الساحة التي أشبهها بأسلوب المتواضع بـ Food Court شاسعة انتشرت على أطرافها المطاعم ذات الخمس نجمات فما فوق؛ تعلقت هي بذراعي وأشارت إلى مطعم استقر على قمته مجسم عملاق لهامبورغر يدور وعليه قبعة كابوبوي..

"أهه المطعم يا حسام.."

في تلك اللحظة بالذات تذكرت احتفالاتنا المتواضعة عند استلام المكافأة في بداية الشهر، كنا نصرف جزءاً معتبراً منها في مطعم تشيليز ومن ثم تدهور خياراتنا الغذائية مع جفاف المكافأة ولا يتبقى لنا سوى خبز التميis المجمد في نهاية الشهر.

تخطينا الزحام وطابور الانتظار لنجلس على طاولة مميّزة مطلة على المجرى المائي مباشرة، يبدو أن أهالي هذه المدينة مهوسون بالكريستال، فقد كانت أرضية المطعم شفافة ومرتفعة قليلاً عن سطح الماء، عندما نظرت حولي شعرت بأن الطاولات تسبح فوق الأمواج ومن تحتها أسراب الأسماك وحدائق المرجان.

هُنَاك

تناولت قائمة الطعام ومالت علي بدلال وهي تقول:

"حتلاقي هنا كل شي يعجبك"

فتحت القائمة، مع أن الجوع لم يتمكن مني بعد، لكن الصور المحسّنة الحية التي تفوح منها رواحة الوجبات كانت كفيلة بتغيير غدي اللعابية! برغر.. ستيك.. ناتشوز.. أجنحة الدجاج الجاموسية الملتهبة.. في العادة تقفز عيني مباشرة لخانة الأسعار، وتصاب بالعمى المؤقت تجاه الأطباق التي يتتجاوز سعرها حاجز الخمسين ريالاً، ولكن هذه القائمة ازدادت روعة بخلوّها من الأسعار اللعينة! تقدم إلينا النادل وسألنا بكل لطف:

"Madam, Sir, What would you like to order?"

"تحب أطلب لك ناتشوز وبافالو وينغز وتشيز برغر ويل  
دن كالعادة؟"

لم أعد أتفاجأ من التفاصيل التي تعرفها عنِّي، تجاهلت جوعي المتفاقم وأنا أمثل دور الشاب اللبق وأسأّلها:

"إِشْ تَحْبِي تَاكِلِي إِنْتِ؟"

"تيركي ساندوتش ودایت کوک.."

إبراهيم عباس

أجبت على النادل:

"May I have one turkey sandwich, one home made cheese burger with bacon, make it well done please, I would also like to have some nachos, and starter platter"

"What would you like to have for drink?"

"Diet Coke, Lemon Ice Tea, and a bottle of still water please"

بالرغم من أن إنجليزيتي مصابة بالكساح إلا أنني تحدثت معه بطلاقة وبلهجته الأمريكية القحة، وكأنني قد ترعرعت في ريف تكساس بدلاً من حي السامر!

ذهب النادل ولم تمض بضع ثوانٍ حتى جاءت الأطباق تقدمها فتاة ترتدي زي الكاوبوي الأمريكي؛ هجمت هجوماً كاسحاً همجياً ببريرياً على ذلك البرغر المسكين.. عجزت يداي عن احتواه من ضخامته ففاقت أصابعني في خبزه اللين الطري الذي ودع الفرن للتو ففاحت رائحته وامتزجت برائحة اللحم المشوي وأذابت في طريقها شريحة الجبن قبل أن تذيبني.

هُنَاكْ

قضمت قضمـة لا تتناسب أبداً مع حجم فمي، رافقتُ أسنانـي  
بـجميع أحاسيسـي في رحلتها عبر طبقـات السـاندويـش فـاكتسـعني  
طوفـان النـكـهـات وأـشـعـرـني بـأـلـمـ طـفـيفـ في أـطـرافـ فـكـي تحت أـذـنـي  
إـثـرـ التـزـيفـ اللـعـابـيـ الـذـيـ أـصـابـنـيـ. لمـ أـمـهـلـ جـهاـزـيـ الـهـضـميـ ولاـ  
الـتـفـسـيـ ولاـ العـصـبـيـ ولاـ حتىـ الـلـمـفـاوـيـ الفـرـصـةـ لـاستـيعـابـ هـجـومـ  
الـبـرـغـرـ، فـتـنـاـولـتـ رـقـاقـةـ نـاتـشـوزـ دـافـئـةـ وـاغـرـفـتـ بـهـاـ غـرـفـةـ منـ ثـمـ  
الـجـبـنـةـ الـذـهـبـيـةـ الـمـلـهـبـةـ وـزـينـتـهاـ بـقـلـيلـ منـ حـمـمـ الـصلـصـةـ وـمـنـ ثـمـ  
أـقـحـمـتـهاـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ يـقـيـ فـمـيـ الـذـيـ لـمـ يـنـهـ التـعـامـلـ مـعـ لـقـمـةـ  
الـتـشـيـزـيـرـغـرـ بـعـدـ. رـاقـبـتـنـيـ بـدـهـشـةـ وـأـنـاـ أـحـرـكـ طـوـاحـينـ فـمـيـ  
وـلـسـانـيـ يـتـلـوـيـ وـسـطـ الزـحـامـ بـصـعـوبـةـ وـهـيـ لـمـ تـلـمـسـ وـجـبـتهاـ بـعـدـ،  
تـوقـفـتـ لـلـحـظـةـ عـنـدـمـاـ لـاحـظـتـ طـفـاسـتـيـ فـانـفـجـرـتـ ضـاحـكةـ..

"بالـعـافـيـةـ يـاـ حـسـامـ؛ أـوـلـ مـرـةـ أـشـوـفـكـ تـاـكـلـ بـهـذـيـ"

"الطـرـيقـةـ؟"

استـعـنـتـ بـرـشـفةـ مـنـ الشـايـ المـلـاجـ المنـعـشـ كـيـ أـنـهـيـ الـمـهـرجـانـ  
الـمـشـتعلـ يـقـيـ فـمـيـ، وـانـزلـقـتـ الـلـقـمـةـ الـعـمـلاـقـةـ بـكـلـ سـعـادـةـ عـبـرـ  
بـلـعـومـيـ إـلـىـ مـعـدـتـيـ؛ الـآنـ اـسـتـعـدـتـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ التـفـسـيـ وـالـكـلامـ:

"طـيـبـ.. وـبـعـدـيـنـ؟"

إبراهيم عباس

"وبعدين إيش؟"

"متى ناوية تفهمّيني؟"

"أفهمك إيش؟"

"تفهمّيني إيش اللي بيحصل هنا؟!"

"اللي بيحصل إننا مبسوطين هنا مع بعض، وإنك بتاكل  
وكأنك عمرك ما شفت الأكل!"

"لا تتهرب من سؤالي.."

"لحظة لحظة.."

قالتها ونادت إحدى النادلات الكاوبويات، وهمسَت في أذنها فابتسمت الفتاة وتوجهت فوراً نحو المنصة في منتصف المسرح حيث انهمك أعضاء الفرقة الموسيقية بتركيب آلاتهم وسماعاتهم، كانت فرقة من خمسة رجال وسيدين يرتدون بدلات مخملية أنيقة بنفسجية اللون مع ربطات عنق ذهبية وقبعات كاوبوي. أصفي رئيس الفرقة الفتاة وأومأ برأسه، وبدأوا بعزف الأغاني المفضلة عندي، وكأنهم يحفظون القائمة التي أستمع إليها كل يوم في هاتفي وسيارتي! ولكنهم عزفواها بطريقة أروع من الأصلية بكثير.

هُنَاك

في هذه الأثناء تصاعدت شدة تيار الهواء الداخل عبر النافذة  
وبدأت ألاحظ حركة غريبة في السحاب والأمواج؛ في الواقع نحن  
الذين تحركنا.. لقد تحركت الجزيرة بأكملها! ارتفعت عن المياه  
وبدأت تسبح في الهواء ورأيت أنوار المدينة والحدائق والممرات  
المائية تتضاءل من خلال الكريستال تحت أقدامنا، كانت الأنوار  
والأبراج تملأ كل نقطة تمكّن بصرى من الوصول إليها؛ لكن  
وبالرغم من دهشتي لم تتوجه مراوغتها لتشتيتني عن أسئلتي  
فكرتها بصرامة أكبر:

"قلت لك لا تحاولى تتهربى مني! أنا في حلم صحي؟"

"بخدمتك فيه أحد عاقل يتوقع إجابة مقنعة من إنسانة  
خيالية في أحلامه؟ منت شايف وحاسس وسامع اللي  
حوليتك؟ هذا حلم هذا؟ عمرها كانت الأحلام بهذا  
الوضوح؟"

"طيب.. أقرصيني لو سمحتِ!"

"نعم؟"

"أقول لك أقرصيني!"

إبراهيم عباس

قلتها بجديةً وعصبية فأطلقت ضحكة قصيرة وتلفتت لتأكد أن  
الأنظار ليست موجهة نحونا:

"طيب طيب.. أعصاك! أهه!"

شعرت بأناملها الرقيقة الناعمة في ذراعي، متأكد أنني شعرت  
بها بالرغم من أنها كانت دغدغة على شكل قرصة؛ هذا لا يكفي!

"اضربيني كف!"

"لا لا إنت فعلًا اتجننت.."

"اضربيني!"

صفعتي صفعة مدللة فهمست بعصبية وأنا أكتم انفعالي بين  
أسنانى المطبقة:

"اضربيني بقوة! يللا!"

صفعتي صفعة حقيقية هذه المرة! شعرت بوخزات دبابيس  
صغريرة تتقافز فوق مساحة كفها الذي ترك علامه حمراء مع  
حرارة بسيطة على خدي، التفت إلينا من حولنا بعد رنين  
الصفعة ثم تداركوا الإلراج بالتجاهل وتلقيق الابتسامات..

هُنَاكْ

تحسستُ مكان الصفعة بألم، فوضعت كفها على كفي وحدي  
وكادت دموعها أن تقفز علي وهي تقول:

"حببي يقطعني! تعورت؟ معيش سامحني.. والله ما  
كان قصدي!"

"مستحيل أكون نايم.. ومستحيل أصدق إن هذا كف  
بنت! فكرتني بأستاذ عايض!!"

تحول هلعها لضحكه كتمتها بيدها وهي تقول:

"لا يغرك شكري.. تراني أعجبك وقت الجد!"

"طب أحلفي إني ماني نايم، أحلفي إني ماني في حلم!"

"وليش ما تكون حياتك الثانية هي الحلم ودوبك  
صحيت منه؟ منت شايف الأشياء هنا أوضح وأحل؟"

"قلت لك لا تتهرب.. أحلفي!"

"والله العظيم إنك بكامل وعيك وإن هذا مو حلم"

إبراهيم عباس

"أصلًاً حتى لو حلفتِ، إش يضمن لي إنك صادقة؟ إش  
يضمن لي إنك تعرفي ربنا؟ متحررة.. متبرجة.. عايشة  
في وسط كل هذا المجنون والاختلاط.."

سكتت فجأة، اختفت اللهفة من ملامحها واعتراها حزنٌ غاضب  
معاتب. فاكتشفت حماقتي الفادحة؛ ليتها تصفعني مئة صفعة  
وتتسى العبارات المنتنة التي قلتها!

"الله يسامحك يا حسام!.. يكون في علمك إحنا نعرف  
ربنا كوييس، وما يحتاج أحلف لك.. لو ما بتصدقني إنت  
حر! ماحد غصبك!"

"زعلت مني صح؟"

"المشكلة إني ما أقدر أزعل منك، أولاً لأنني عارفة كل  
الظروف اللي مررت بيها والعقليات اللي خالطتها"

"وثانياً؟"

"وثانياً.. عشان أنا..."

"إنت إيش؟"

هُنّاك

"ولا شي، مو تقول عندك أسئلة؟ يلا اسألني عن أي  
شي بس بشرط.." .

"اتفضلي اتشرّطي"

"ما حاقدر أجوابك غير بـ (إيه) أو (لا)، صدقني ما  
أقدر أعطيك أي تفاصيل، إلا في حالة واحدة"

"إيش؟"

"لو قررت إنك ما ترجع أبداً لماضيك ممكن أكشف لك  
كل شي! غير كذا ما حاقدر أقول أي شي، كل اللي رح  
أحاول أسويه إني المّح لك بتفاصيل حياتك عشان  
تتذكر وتعرف إنت كيف جيت هنا وكيف حترجع"

"يعني لو شرحت لي كل شي حانحبس هنا؟"

"تعيش معايا هنا.."

"لأبد؟"

"لأبد!"

"لا لا مستحيل!.. طب حاسّالك وجاويبني بإيه أو لا .."

إبراهيم عباس

أراحت خديها على كفيها ونظرت إلى بعينيها القاتلتين اللتين  
عكستا الأجواء العسلية المحملية من حولها هذه المرة وقالت  
بدلال شهرزادى:

"تحت أمرك يا سيدى"

"أنا باحلم؟"

"قلت لك .. لأه!"

ركّزت جرعة دلالها هذه المرة في كلمة (أه) فقالتها ببطء  
وألصقت طرف لسانها في سقف حنكها لوهلة ثم أطلقت سراحه  
مع همزة وهاء خفيفة .. تجاهلت الدوار الذي انتابني من غنجها  
وواصلت الأسئلة:

"يعني أنا صاحي؟"

"إيوه"

"كل شي هنا حقيقي مو مجرد خيال في ذهني؟"

"إيوه كل شي هنا حقيقي"

"انت جنية؟"

هُنَاك

"بِاسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ! لَا طَبِيعاً.. مَانِي جَنِيَّةٌ"

"أَنَا فِي تجْرِيَةٍ عَلَمِيَّةٍ نَقْلَتِي لِلْمُسْتَقْبِلِ؟"

لم تتوقف عن الضحك وهي تقول:

"لَا.. حرام عليك بتقتلني من الضحك!"

"فِي كَوْكَبٍ ثَانِي؟"

"إِنْتَ مِنْ جَدِّ مَتَأْثِرٍ بِالْأَفْلَامِ الَّتِي طَفَشْتِي بِبِهَا!"

"أَنَا مَيْتٌ صَحٌ؟"

"بَعِيدُ الشَّرِّ عَنِّكَ! لَيْهَ تَقُولُ كَذَاهَا!"

"يُعْنِي.. كُلُّ هَذَا النَّعِيمِ، وَلَا تَأْخُذِينِي.. كَمَانْ جَمَالِكِ.."

"يَسْتَحِيلُ يَكُونُ دُنْيَوِيًّا!"

لم أقصد أن أدغدغ مشاعرها، ولكن من الواضح أن كلماتي  
جعلت تلك المشاعر ترقص طرباً وترسم ابتسامتها وهي تقول:

"يُعْنِي مَعْقُولٌ بَعْدِ كُلِّ الْمَوَادِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي درستها

والخطب والمحاضرات متخيل الجنة مكان زي دا؟"

إبراهيم عباس

لا لا .. هل يعقل أن تعطيني فتاة كهذه درساً دينياً؟ واصلت  
شيختنا الجليلة حديثها :

"الجنة فيها مala عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على  
قلب بشر.. واللي انت شايفه حولينك أي شخص عادي  
يقدر يتخيله! الجنة عالم ثاني يا حسام، ما تربطه  
بالدنيا إلا المسميات فقط..!"

إنها تقتبس من الأحاديث وأقوال ابن عباس!! لم أشأ أن أسألهما  
عن مصادر معلوماتها فقد بلغ بي التوتر مبلغه، يجب أن أعرف  
أين أنا!

"طب أنا فين قولي لي! أرجوكِ قولي لي!!"

"خلاص أقول؟ قررت تعيش معايا للأبد؟"

"خلاص لا تقولي لي.. حاكتشف بنفسي!"

نسفت بوادر الفرحة التي ظهرت على وجهها بجوabi فاكتساه  
الإحباط.. كم أنا حقير.. حقير ودنئ ووضيع وصفيق وقليل أدب!  
كيف أعامل هذا الملاك بكل هذه القسوة؟ قمت من الطاولة  
فتادتني بقلق:

"فين رايح؟"

هُنّاك

لم أجبها، وإنما توجهت إلى قائد الفرقة.. وعدت إليها؛ وقفـت  
عندـها وقـفة استـعراضـية وكـأن رـشـدي أـبـاطـلة قد خـرـجـ منـ أحدـ  
أـدـوارـهـ الدـونـجوـانـيـةـ:

"ـسـمـحـيـ لـيـ بـالـرـقـصـةـ دـيـ؟"

بدـأـتـ الفـرـقـةـ تعـزـفـ الأـغـنـيـةـ التـيـ طـلـبـتـهاـ،ـ جـحظـتـ عـيـنـاـهاـ منـ  
الـدـهـشـةـ وـالـسـعـادـةـ وـكـادـتـ أـنـ تـقـفـزـ مـنـ مـقـعـدـهاـ لـتـعـلـقـ بـذـرـاعـيـ،ـ  
اتـجـهـنـاـ نـحـوـ الـنـصـةـ..ـ خـفـتـ الـأـضـواـءـ قـلـيلـاـ وـالتـفـتـ نـحـوـنـاـ جـمـيعـ  
مـنـ فيـ المـطـعـمـ:

"ـكـلـمـاتـ)ـ كـتـبـهـ نـزارـ قـبـانـيـ،ـ وـلـحـنـهـ إـحـسانـ المـنـذـرـ،ـ  
وـغـنـتـهـ مـاجـدـةـ الرـوـمـيـ؛ـ كـنـتـ تـسـمـعـهـ فـيـ السـيـارـةـ وـتـخـبـيـ  
الـسـيـ دـيـ تـحـتـ الـمـقـعـدـ عـشـانـ مـاـ يـكـفـشـكـ أـبـوكـ..ـ

ابـتـسـمـتـ وـأـنـاـ أـتـأـمـلـ عـيـنـيـاـ،ـ لـاـ يـهـمـنـيـ مـاـ تـعـرـفـهـ عـنـيـ،ـ لـاـ أـرـيدـ أـنـ  
أـعـكـرـ صـفـوـ هـذـهـ اللـحـظـةـ بـأـيـ شـئـ يـشـغـلـنـيـ عـنـ عـيـنـيـاـ،ـ فـقـطـ  
جـعـلـتـ كـفـيـ وـسـادـةـ لـكـفـهاـ،ـ وـعـانـقـتـ ذـرـاعـيـ خـصـرـهاـ،ـ فـأـصـبـحـ  
جـسـمـهـاـ مـعـلـقاـ بـجـسـمـيـ،ـ مـسـتـسـلـمـةـ تـتوـسـدـ كـتـفـيـ وـصـدـريـ وـأـنـاـ  
أـرـاقـصـهـاـ عـلـىـ كـلـمـاتـ نـزارـ.ـ فـشـلـتـ مـحاـولـاتـ قـوـامـهـاـ الـفـارـعـ وـكـعـبـهاـ  
الـعـالـيـ فـيـ مـناـهـزـةـ طـولـيـ،ـ مـاـ أـجـمـلـ هـذـهـ السـنـتـيـمـترـاتـ!ـ سـحـقاـ لـكـ  
أـيـهـاـ الـقـصـرـ سـحـقاـ!!

إبراهيم عباس

"كم طولك؟"

"طولي؟! ١٧٦ سم ليش؟"

"يعني أنا طولي يطلع تقريباً..."

"١٨٩ سم!"

قالتها بمرح، ثم بدأت تغنى بansonjam..

"يُسمعني.. حين يُراقصني.. كلماتٍ ليست كالكلمات..  
يأخذني من تحت ذراعي.. يزرعني في إحدى الغيمات.."

غنتها بصوتٍ ملائكي أنساني إدماني ل Mageeda وFirouz وكل صوت  
أنثوي سمعته في حياتي، كنت أشعر بالإحباط كلما سمعت  
الأغنية، لأنها تحكي باختصار تفاصيل لحظة يستحيل أن يعيشها  
شخصٌ مثلِي؛ لا يملك مالاً ولا جاهًا ولا جمالًا ولا طولاً.. والأهم  
من ذلك لا يملك قلب حسناً تبادله أطراف العشق، كنت أعتبرها  
فانتازياً وهمية أستمع إليها فقط كي أتلذّف أعصابي؛وها إنذا  
أعيشها اليوم بكل حذافيرها، أراقص ملكة جمال الكون، أحملها  
من تحت ذراعها وهي تغنى لها.

هُنَاكَ

كنا نرقص مع ألحانها وكانت الموسيقى تعزفنا كما تعزفها،  
عانت نظراتها نظراتي، واحتضنت أنفاسها أنفاسي، ففضلت  
 قطرات من نهر التوپاز في عينيها الواسعتين وتعلقت على أهدابها  
النحاسية للحظات قبل أن تغادرها مع دورانها بين ذراعي. ألا  
يُفترض بتلك الدمعات أن تُذيب بعض مساحيق التجميل حول  
عينيها كما تفعل عادة ببنات عالمي الذي أتيت منه؟  
"على فكرة أنا ماني حاطة أبي ميك أبي!"

"ليش؟"

سألت سؤالي الغبي فنظرت إلي بتосل وهي تتقول:  
"مو عاجبك شكلِي؟ تحب أحط لك ميك أبي؟ إيش  
الشكل اللي يعجبك؟"

ألا تعرف هذه المجنونة أن جمالها يسخر من شركات تصنيع  
المنتجات التجميلية؟ ألم تستوعب أن حُسنها لا يعترف بمقاييسنا  
البشرية؟ حاولت مداراة سؤالي:

"لا بالعكس، أنا للان ماني قادر أصدق إنه ممكن يكون  
فيه في الوجود مخلوقة بجمالك، ما بالك إنه المخلوقة  
الأسطورية هذي ترقص الآن بين أحضاني؟"

إبراهيم عباس

الآن اكتشفت أن حمرة خديها ليس لها علاقة بمساحيق التجميل، فقد نضجت خجلاً أمام عيني وفررت من نظراتي إلى صدري؛ فسألتها:

"أنتِ تقرأي أفكارِي صح؟"

"لا"

"ولكن كيف..."

رفعت رأسها عن صدري وقاطعتي بنظرتها قبل عبارتها:

"تقدر تقول غريزة"

"غريزة؟ حسستيني إنك أمي"

"الحب يا حسام يمزج القلوب والأرواح، يخليها تسابق أحاسيسها، تشوف قبل عيونها، وتسمع قبل آذانها"

ألجمتني كلماتها، عادت إلى صدري وأسدلت جفنيها إلى أن انتهت الأغنية.. توقفت الموسيقى، واستمر رقصنا بدونها، إيقاع قلوبنا كان كافياً. توقف المطعم عن الطفو بهدوء، فرفعت رأسها وقالت بنبرة حزينة:

"وصلنا.."

هُنَاك

نظرتُ من النوافذ المفتوحة لأكتشف أن المطعم أصبح بمحاذة  
غرفتي التي استيقظت فيها.. أخذت بيدي إلى شرفة المطعم  
حيث امتد مسار من طرفه إلى طرف شرفتي، نزلتُ من تلك  
الجزيرة الطافية ولكنها لم تنزل معي..

"ما حتنزلي؟"

"لازم أمشي.. فيه أشياء كثير لازم أحهزها لك"

"طب.. طب ما حاشوفك مرة ثانية؟"

"لو تبغاني ناديني وأنا أجيك على طول.."

قالتها عندما بدأت تلك الجزيرة الطائرة بالابتعاد تدريجياً وهي  
تقف على طرفيها والهواء يلوح لي بثوبها وشعرها، فهتفت كي  
تسمعني:

"كيف أنا ديكي؟ إنتِ ما قلتِ لي إسمك؟"

"إنت سأّلتني خمسين سؤال ولا حتى فكرت تسألني عن  
اسمي.."

إبراهيم عباس

سحقاً! كيف لم يخطر ببالي أن أسألها عن اسمها؟ أتنبي إجابتها  
وأنا أجتر حرجي:

"أنا ملاك يا حسام!"

كان صوتها يتضاءل وهي تبتعد على متن ذلك الشئ الطائر إلى  
أن اختفى في الأفق.. واختفت معه.. ملاك!

هُنَاكَ

(3)

**أيقطوني!**

إبراهيم عباس

هُنَاك

لم تشعر خلايا مخي بالإنهاك من قبل كما شعرت به اليوم، كانت تتعرض لضغط رهيب وأنا أعتصر آخر قطرة ذكريات فيها .. بلا فائدة! بحثت بين دهاليزها عن تفسير منطقي لكل ما يحصل لي، وفشلت فشلاً ذريعاً.. لا تزال ذاكرتي مضمحةً فيما عدا الأحداث التي عشتها هنا، تذكرتها بأدق تفاصيلها؛ الذكريات تكون واضحة في المعتاد إذا كانت طازجة ثم تصبح ضبابية وتتبخر مع الزمن، ولكن ذكريات الأحداث التي مررت بي هنا تختلف، لا أستطيع حتى أن أعتبرها ذكريات من شدةٍ وضوحاً، وكأن ملاك لا تزال تصهرني بين ذراعيها وتغرقني في عينيها. سحقاً لها ما أجملها! استنتجت أنها تعمدت إنشاع ذاكرتي بشكل غير مباشر! ذكررتني بملابسي المفضلة وبالأغاني التي أسمعها والوجبات التي أعشقها؛ يستحيل أن يكون كل ذلك محض صدفة! ولكن لماذا تتهرب من أسئلتي؟ لماذا تدعّي أنها لا تستطيع مواجهتي بالحقيقة؟ هل تتفذ ملاك أوامر شخصٍ ما؟ أو جهة ما؟ من تكونين يا ملاك؟ بالله عليك من تكونين؟

ها أندًا مرة أخرى في هذه الغرفة الشاسعة الفارغة، سأحاول أن أتأقلم عليها.. أن أستكشفها.. سوف أستخدم حديسي وأناملي؛ انطلقت بجنون في كل زاوية في الغرفة أمرر أناملي وأنقر بأصابعك كما فعلت ملاك، وبعد لحظات تحولت غرفتي إلى عالم آخر تماماً! كنت كلما لمست شيئاً افتحت أبوابه وظهرت أدراجه وتوهجه إضاءته، باختصار كانت الغرفة مجهزة بكل ما يخطر ببال. تدخلت القباب الكريستالية في بعضها البعض فانكشف السقف، ارتفعت الستائر وافتتحت جميع الأبواب الزجاجية فأصبحت الشرفة جزءاً من الغرفة، تزحزحت ببوابة غرفة الملاس وبجوارها ظهر شئ أستحيي أن أسميه "حمام" لأنه أفحى من أفحى قصر رأيته، ظهرت فتحتان دائريتان في منتصف الغرفة وصعد من الأولى مقعد جلدي أبيض أشبه بمقاعد الليزي بوبي أبيض على طرفه طاولة صغيرة، ومن الفتحة الأخرى صعدت ثلاثة اسطوانية شفافة تحوي صفوافاً من المشروبات استطاعت أن أميز من بينها بعض مشروباتي المفضلة ارتصت أسفلها تشكيلة من الشوكولاتات التي أعشقها بالإضافة إلى المكسرات والموالح، ومن جهتها الأخرى مكينة استنتجت من الروائح التي انبعثت منها أنها مكينة إعداد قهوة وشاي وجميع المشروبات الكفيلة بترويق أشد المزاجات تعكيراً ..

هُنَاكْ

باختصار فرع لكافيه متكملاً في وسط غرفتي. لم أستطع مقاومة هذه الإغراءات، فمررت أناملي على الشاشة الصغيرة الملحةة بالماكينة واستطعت التعامل معها بسهولة فاخترت كابتشينو مزين بجبل صغير من الكريمة المرصعة بقطع التوفى، واخترت صورة كعكة سمراء، ضفتها فبرزت على استحياء، ساخنة تنزف سيلًا من الشوكولاتة الذائبة وتنسقها منها أبخرتها، هبطت عليها برفق كرة آيسكريم مزينة بزهرة ثانيلا حقيقية تشبه التي لم أرها في حياتي سوى على أغلفة الكعك وعلب الآيسكريم. تراقصت في ساحات أنفي روانج القهوة والتوفى والشوكولاتة والثانيلا، أخذت ذلك الكارنفال الفواح، وجلست على الكرسي الذي تشنّى مع ظهري وهو يغوص فيه وظهرت أسفل قدمي وسادة وثيرة رفعتها برفق فأصبحت شبه مستلقٍ على ذلك الشئ المريح، وبجواري قهوتي وكعكتي؛ بربت من الأرض أربعة أعمدة رفيعة حولي، وقبل أن أفك في ماهيتها أطلقت أشعة أحاطتني بساطوانة متوجحة، كانت عبارة عن شاشة مجسّمة ثلاثية الأبعاد تحيطني من كل جهة. لو كنت مليارديراً في الحياة الحقيقة لأنفقت ثروتي لاختراع شئ كهذا!

ظهرت أمامي صور فهمت منها أنها خيارات بين الأفلام والموسيقى والألعاب والكتب، كانت بارزة ومجسمة أمامي، مددت يدي لصورة الشريط السينمائي فاخترقته وبدأ يتحرك، دفعت يدي في الفراغ فتحركت الصور مستجيبة لتلويح يدي.. إنترنت!!! أحتاج إنترنت لمعرفة ما يدور هنا! يجب أن أتواصل مع أي شخص لطلب النجدة!..

فورما نطقـت كلمة إنترنت تحولـت الشاشة أمامي، أو بالأـ صـحـ حـوليـ إلى متـصـفحـ! نـعـمـ سـأـحـلـ اللـغـزـ الآـنـ! يـجـبـ أـتـذـكـرـ بـريـديـ إـلـكـتـرـوـنيـ، أوـ حـسـابـيـ يـفـيـسـبـوـكـ، أوـ تـوـيـترـ.. يـجـبـ أـتـذـكـرـ كـلـمـاتـ السـرـ.. ماـ اـسـتـعـدـتـهـ مـنـ ذـاـكـرـتـيـ لـمـ يـسـعـفـنـيـ كـثـيرـاـ.. فـتـحـتـ مـوـاـقـعـ الصـحـفـ وـالـأـخـبـارـ لـأـكـتـشـفـ التـارـيـخـ: السـبـتـ، الـأـوـلـ منـ شـهـرـ نـوـفـمـبـرـ عـامـ أـلـفـيـنـ وـأـرـبـعـةـ عـشـرـ، صـحـيـحـ تـذـكـرـتـ.. هـذـاـ تـارـيـخـ الـيـوـمـ! الـحـمـدـلـلـهـ أـنـاـ يـقـيـنـ بـهـ أـنـهـ مـنـ ذـيـنـ أـنـتـ ذـكـرـتـيـ.. أـسـمـيـ فـيـ مـحـرـكـاتـ الـبـحـثـ: حـسـامـ خـالـدـ الشـرـيفـ.. وـوـجـدـتـيـ أـخـيـرـاـ.. وـجـدـتـ حـسـابـيـ عـلـىـ تـوـيـترـ.. نـعـمـ هـذـهـ صـورـتـيـ.. صـورـةـ بـرـوـفـايـلـيـ.. أـتـذـكـرـهـاـ جـيدـاـ.. وـجـدـتـ آـخـرـ تـغـرـيـدـةـ كـتـبـتـهـ مـنـذـ ثـمـانـيـ سـاعـاتـ: "الـلـيـلـةـ يـاـ طـلـعـةـ سـمـكـ، يـاـ تـحدـيـ بـلـاـيـسـتـيـشـنـ.. يـالـهـ مـنـ اـخـتـيـارـ صـعـبـ!". كـيـفـ يـمـكـنـيـ الدـخـولـ لـحـسـابـيـ؟ سـأـفـتـحـ حـسـابـاـ جـدـيدـاـ..

هُنَاك

يجب في البداية أن أفتح حساب بريد إلكتروني، حاولت أن أنشئ حساباً في قووقل، كل شئ يتوقف عندما أضغط زر التأكيد! كررت محاولاتي في هوتميل وياهو وجميع موقع البريد الإلكتروني بلا فائدة! أعتقد أنها مشفرة، سأستغل الإنترن特 بطريقة مختلفة إذاً، سأبحث عن طرق الاستيقاظ من النوم والغيبوبة، أمضيت ساعات وأنا منهمك بدراسة كل ما يتعلق بالنوم والأحلام والغيبوبة والتنويم المغناطيسي، والأهم من ذلك كله كيفية الاستيقاظ منها. أفضل طريقة للاستيقاظ من حلم مزعج هو أن تنام داخل الحلم حتى تستيقظ في الواقع! شاهدت عشرات أفلام اليوتيوب، كانت جميعها ثلاثة الأبعاد تدور حولي، كان دماغي يعمل بكل كفاعة وتركيز لم أحلم بهما حتى أثناء أتعى الامتحانات الجامعية، شعرت أنني تحولت لعالم ميتافيزيقي في ساعات قليلة. ولكنني تلقيت صدمة عنيفة! الوقت لم يتزحز! بعد عدة ساعات لم يتغير شئ في الواقع، تغيرتني مازالت متجمدة منذ ثمان ساعات! لم تتم إضافة أي فيديو في اليوتيوب ولا أي تحديث أو حتى تعليق في أي موقع!

جميع الواقع لا تزال تظهر الساعة الثانية عشر وثلاثة وعشرين دقيقة فجر السبت، الأول من شهر نوفمبر عام ألفين وأربعة عشر، وكان الزمن قد تحنّط عند تلك اللحظة بالذات!

إبراهيم عباس

هذا الإِنترنت وهمي! عبارة عن قاعدة بيانات غير متصلة بالإِنترنت، بل تحوي كل ما في الإِنترنت حتى هذا التاريخ أو بالأَصح حتى تاريخ انتقالِي من عالمي إلى هنا! إذاً فرحتي بأنني لا أزال في نفسِ الزَّمن لم تتم! كيف لم أنتبه أننا في عزِّ النَّهار بينما يشير التوقيت إلى منتصف الليل؟ إذاً أملِي هو أن أنام وأكتشف أن كل هذا مجرد حلم! تركت غُوصة المقعد لأغوص في السرير، أغمضت عيني.. واسترخت؛ في العادة ينقض على النوم قبل أن أناديه، ولكنني فشلت اليوم في استدعاة؛ مرت أكثر من ساعة وأنا مستلقٍ على السرير مغمض عيني، أعصرهما بلا فائدة! تعبت من التفكير والمحاولات.. حسنٌ، يكفيني ما اكتشفته اليوم. بما أنني محبوسٌ هنا فسأستمتع بكل ما حولي إلى أن ينهكِي التعب وأحضر النوم رغمًا عنه!

تجولت في جنائي، اتكأت على حافة الشرفة الشفافة أتأمل المدينة، تبدو مكتظة بالحياة أكثر من البارحة، وضوح الأشياء هنا يكاد يصيبني بالجحون، كل ما أراه وما أسمعه وأشعر به هنا واضح وجلي بشكل مريك، ألقيت ببصري على الشاطئ الرملي، يبعد مئات الأمتار، ومع ذلك أستطيع رؤية الناس وتمييز أشكالهم وسماع ضحكاتهم.. هل يستطيع مخلوق أن يقاوم هذا الشاطئ؟!

هُنَاكْ

توجهت إلى غرفة الملابس التي تحوي قسماً خاصاً بالملابس والأدوات الرياضية التقطت شورتاً بماركة أوكلி التي اعتدت على التغزل بها واخترت النظارة الشمسية التي تحمل نفس الخطوط النارية التي تزيئه وأخذت معها پولو تي شيرت تركوازي اللون ومنشفة ألقيتها على أكتافه ونزلت.. كانت فرقة العازفات لا تزال تعزف في البهو.. ولكنهن كن يعزفن الحانَا نهارية كلاسيكية مرحة أشعرتني أنني في أحد منتجعات ميامي في السبعينيات.. لكررت إداهن صديقتها لتلتلت إلى.. وفضحتهن بابتسامات الإعجاب وأنا أمر أمامهن وكدن أن يتلعنن في معزوفتهن عندما بادلتهن الابتسامة: أغراني ارتباكن فاقتربت منهن، وانهارت لا مبالاتهن المصطنعة عندما وقفت أمامهن مباشرة وشبّكت ذراعي وأنا أراقبهن بإعجاب. توقدن عن العزف من شدة الخجل.. فصافّفت لهن بحرارة، صفة إعجاب بموهبيهن، وتقدير لجمالهن، وتلطيف لاستحياءهن. نزلت الفتاة التي تجلس في المقدمة من مقعدها الرخامي في قلب النافورة فمدّت لها يدي لأساعدها، فتبعتها الآخريان:

"أنا ليان"

خشيت أن أهشم أيديهن الضئيله عندما صافحتهن:

إبراهيم عباس

"هذى أختي لين.. وهذى أصغرنا.. لينا"

"تشرّفنا.. وأنا حسام الشريف"

تبادلن صحّحة خجولة متعجبة عندما عرّفت بنفسي فبادرتني:

"سید حسام، الكل هنا يعرفك"

"هنا؟.. هنا فين؟! المصيبة أنا أصلًا ماني فاهم أي شي

هنا إش هذا المكان أصلًا؟!"

"هذا برج الضيافة التابع للمجمع المركزي في H

"Universe

"ما فهمت أي شي! Universe H؟! يعني شعار حرف

H اللي في كل مكان يرمز لها؟"

"بالضبط"

"أنا كنت فاكر إنه أحد فنادق الهيلتون في حقبة ما من

حقب المستقبل!"

ضحك البناء بالرغم من أنني لم أكن مازحًا، فواصلت أسئلتي:

"طيب كيف أقدر أتنقل هنا؟ في تكاسي؟!"

هُنّاك

كل شئ يخطر على بالك موجود هنا، تحب أجيب لك  
سيارة؟ يخت؟ طيارة؟"

قالتها وأخذتني بيدي إلى أحد المقاعد في الردهة فجلسنا  
ومررت بيدها على الطاولة الصغيرة أمامها ظهرت صورة  
ثلاثية الأبعاد للحرف H:

"يعني لو في سيارة أحسن عشان أسوقها براحتي"

تنقلت بيدها بسرعة ظهرت مجموعة هائلة من السيارات ثلاثة  
الأبعاد، وكأننا في مرحلة اختيار السيارات في إحدى ألعاب  
البلايسيشن، وسألتني:

"في سيارة معينة في بالك؟"

أجبتها بالعبارة التي أقولها دائمًا لموظفي استئجار السيارات:

"أي سيارة صغيرة ظريفة وسعرها معقول"

لم تستطع ليان وأخواتها حبس ضحكاتهن، مررت من بين  
السيارات المعروضة فاتحة أسالت لعابي فلاحظت ذلك ليان:

"عجبتك الفيراري؟!"

إبراهيم عباس

حسبت لعابي بصعوبة وأومن أنت برأسى كفتاة سألهما أهلها إن كانت  
تقبل بالزواج من فتى أحلامها!

"تحب تختار أي لون ثانٍ؟ وللا عاجبك لونها الأحمر؟"

استمرت إيماءاتي الخرساء البهاء.. فابتسمت ليان وهي تقول:

"دقيقة و تكون هنا!"

وفعلاً لم تكمل ليان عبارتها حتى ارتفع هدير السيارة ورأيتها  
توقف بنفسها أمام مدخل المبنى.. تخلّيت عن قواعد اللباقة  
فتركّت ليان وأخواتها دون حتى أن أشكّرها وركضت نحو  
الفيراري حالي في القدمين تكاد منشفتي تسقط عن كثفي.

طبيقت حلم حياتي في تجاهل باب السيارة المكسوقة والقفز على  
الكرسي مباشرة، وهتفت في سري "أرجوكِ سامحيني يا عزيزتي  
الكامري .. أرجوكِ!" ارتطم كوعي بحافة السيارة ولكنني لم  
أفسد اللحظة بآلام كوعي وتكهرب ذراعي، فقط لوّحت لليان  
وأخواتها اللائي وقفن يراقبنني بسعادة من خلف الزجاج؛ عدّلت  
المراة أمامي.. ولكن ما هذا؟! أين المقود؟ لا يوجد مقود! ولا  
حتى دوّاسات!! فقط زر تشغيل وكرة حمراء متوجّهة بشاشة  
مجسّمة أمامي.. ما هذا؟ أريد أن أقود سيارة حقيقة!

هُنَاكْ

امتعضت جداً جداً.. ولكنني سرعان ما تأقلمت على قيادة هذه اللعبة، فتلك الكرة العجيبة تتفاعل بسلاسة مع حركة يدي، أدحرجها يميناً ويساراً للانعطاف وأدفعها للأمام لزيادة السرعة وللخلف للتراجع وأضغط عليها لتخفيض السرعة والتوقف؛ شعرت أن قدمي اليمنى ويدى اليسرى معطلة تماماً، ليست معتادة على كل هذا الكسل أثناء القيادة. ما أجمل صوت انسياب العجلات على الطريق والرجفة اللذين تحدثها مريعاته الصخرية؛ لم أتهور، لا أعرف أنظمة وقوانين هذا المكان، فاكتفيت بقانون "يا غريب كون أديب" حتى إشعار آخر. كان الطريق الصخري يشقّ الحديقة التي تفصل البرج عن الشاطئ، وينعطف بمحاذة الساحل ويمتد عبر مبنيًّا على شكل قوقة عملاقة مغطاة بمادة لؤلؤية مصقوله. هذا المبني عبارة عن مجمّع تجاري متكامل، تباطئ سيارتي وأنا أمر بجوار الثاثرينات، لست متأكداً إن كان هؤلاء الواقفون خلفها عبارة عن إسقاطات ثلاثية الأبعاد أم مجسمات حية متحركة أم أشخاص حقيقيون! فضولي جعلني أدوس على كرة القيادة لا شعورياً فتوقفت الفيراري أمام بوّابة المبني ونزل الشاب الوسيم المحروم حالي في القدمين ليقتتحمه!

شعوري الآن يشبه شعوري في المرة اليتيمة التي زرت فيها دبي عندما جمعت أول راتبين أتقاضاهما في حياتي وسافرت مع أمي ومرام.. الشهقة التي شهقتها ذلك اليوم عندما دخلت دبي مول لأول مرة تساوي تقريرًا جزءاً من ألف من الشهقة التي شهقتها اليوم!! تسكعت في ذلك المول لعدة ساعات، مول؟ لا لا إنني أهينه بهذا الوصف.. هذا حتماً شئ آخر! جنة من التسوق والمتاعة، وليكتمل نعيم هذه الجنة لم يطلب مني أحد أي نقود! لا نقود، ولا بطاقات ائتمانية ولا صرافات آلية: نسيت الكلمة اللعينة الأكثر اعتصاراً للقلب وتوريهاً للقولون: "بكم؟!" فقط التقط ما يعجبني فتلفّه لي البائعة وتضعه في الكيس بكل ود وتودعني باسمي.. فعلاً الكل هنا يعرفني!

حتى الأطفال يشيرون إلى ويفلتون أيادي آبائهم ويهرونون نحو ليلقوا التحية ويلتقطوا مع الصور.. أرجوكم ذكروني أن أكافئ نفسي وعقلي الباطن على كل هذه الدقة والإبداع بعد أن أستيقظ من هذا الحلم اللذيد!

هُنَاكْ

تجوّلت بين محلات السوق وتبضّعت بكل طفافة ثم عرّجت على ردهة المطاعم وحيرّتني بعض الخيارات قبل أن أعدل بينها وأجريها جميّعاً. توجّهت إلى قاعات السينيما المجمّمة ودخلت في قلب الفيلم الذي اختerte مع طنجرة الناتشوز وسطّل الكاراميل بوبوكورن وبرطمان الآيسكريم.. لأول مرّة في حياتي تهكّني المتعة ويتعبّني الأكل! أستطيع أن أقضي عدة أيام -أو أسبوع- في الاستطلاع والاستمتاع هنا. ولكنني في نفس الوقت لا أريد أن أفوّت متعة السباحة، سأغادر الآن قبل أن يحل الظلام، استوقفني محل للمجوهرات قبل أن أصل للبوابة، دخلت أبحث عن هدايا مناسبة لأمي ومرام، حتى لو كان كل هذا مجرد حلم، فلطالما حلمت بإسعادهن!

بداهة -وكأي شاب سعودي- أول ما خطر ببالي هو شراء هواتف آيفون لهن، لكن لحسن حظي عثرت على هذا المكان وأنقذتني البائعة التي اقترحت علي مجموعة من الهدايا الرائعة، لم أتردد فيأخذها كلها وطلبت منها أن تزيّنها وتضعها في أكياس منفصلة لأمي ومرام، سأحكّي لهما عن هذه الهدايا بالتفصيل عندما أستيقظ!

إبراهيم عباس

"ما تحب تأخذ أي شيء ثاني سيد حسام؟"

قالتها البائعة في اللحظة التي لفتت انتباхи فيها تحفة صغيرة عبارة عن قطعة ألماس لونها يحمل نفحة زهرية على شكل قلب يحتضنه جناحان من الذهب الأبيض. في الحقيقة ذكرتني بملك..

"هذا أكثر قطعة مميزة عندي، ذوقك رائع سيد حسام"

طالما أن كل شيء هنا بالمجان فلم لا أكون فتيًّا ليقاً وأقدم لها هدية في مقابل دعوتها اللطيفة لي. لن أضيع كيساً من أجل قطعة صغيرة، فألقيتها في جيبي وحمل كل إصبع من أصابع يدي نصيه من الأكياس، حشرتها في الفيراري وانطلقت نحو الشاطئ.

كان الشاطئ مكتظاً بالناس، يلعبون يسبحون يسترخون؛ مشيت على الرمال البيضاء، كانت ناعمة جداً كأنها كرات رخامية صغيرة، تغوص أقدامي فيها لکعبى مع كل خطوة؛ فكُرت في أن أتعرف على الناس هنا، أن أسأّلهم أين أنا، ولكنني خجلت بصراحة، لن أجرؤ على الحديث معهم، وإن يكن حلماً ما يدراني إن كانت العوائل هنا تعتبر الشباب ذئاباً مفترسة كعوائlnا؟

هُنَاكْ

موسيقى فرقة "الحسناوات الخجولات" (هكذا أسميت فرقة ليان وأخواتها) تملأ المكان انضم إليها عزف الأمواج والطيور التي قررت أن تشاركتنا السباحة واللعب، رأيت طفلة صغيرة تعُلّقت في بالونها وسط المياه وأخذت تطعم الطيور التي تجمعت حولها وعلى كتفها ورأسها، لتضع ضحكاتها اللمسة الأخيرة على الموسيقى الرائعة، من شدّة صفاء المياه كنت أرى ظل الطفلة وظل الطيور بوضوح على قاع البحر.. لولا تكسر تلك الظلال قليلاً بسبب الأمواج واللون الفيروزي الخفيف الذي اكتساحتها لظننت أنها معلقة في الهواء. لن أعود إلى عالمي قبل أن أحلل كل شيء هنا! سحبت نفسي عميقاً، ركضت نحو المياه المغربية، التقطت قنيمة شاي مثلج أزرق من الكشك المنصوب في وسط المياه، فتحتها وأنا أركض، ارتشفت رشفة وصبت الباقى على رأسي، أقيمت بمنشفتي بعيداً، وقفزت قفزة عالية في الهواء، أو بالأحرى طرحت قليلاً.. تذكرت في تلك اللحظة بالذات أني لا أجيد السباحة بدون العوامات!

ولكن لا يهم! كما تعلّمت الرقص في لحظة سأتعلم السباحة مع أول غطسة! غمرتني المياه، شعرت بلسعة برد لطيفة لم تستمر سوى ثوانٍ بسيطة، يا إلهي، المياه ليست مالحة، بل عذبة! وكأنني أصبح في بحر من الإثيان!

فتحت عيني وكانت الرؤية في غاية الوضوح؛ توغلت لأكتشف جنة أخرى تحت الماء، تعبت عيني من كثرة الألوان؛ والعجيب أن المخلوقات هنا ليست مصابة بالرّهاب القهري كما في عالمنا؛ أمد يدي للأسماك الصغيرة فتتجمع حولها وأشعر بزغزعة قبالتها في يدي وذراعي. نفسي الذي كان لا يسعفي لبعض ثوانٍ أبقاني تحت الماء لبعض دقائق قبل أن تطالب رئتي بال المزيد من الأكسجين. استلقيت على ظهرني وطفوت على سطح الماء؛ لقد ابتعدت كثيراً عن الشاطئ لكن موسيقى فرقة الحسنوات لا تزال واضحة، لمحت في الجهة الأخرى من الشاطئ مجموعة من .. من ... شئ يشبه كثيراً الجِبْت سكي؛ يااه كم كنت أتمنى أن أمتطي هذا الشئ! لم أتجرا على ركوبه من قبل، فنصف ساعة عليه كفيلة بتدمير ميزانيتي الشهرية! سبحت نحوها؛ إنها لحظة الانتقام من جميع مؤجري الجِبْت سكي الجشعين المفترين! كانت تطفو على سطح الماء بالعشرات، لم يكن هناك أحد يؤجرها. اخترت أكثرها تماشياً مع ألوان ملابسي، وثبتت عليه، وانطلقت. كانت جرأتي وشجاعتي تزداد كلما زادت سرعتي وأنا أنطلق على بساط الكريستال الأزرق، محدثاً موجتين مرتفعتين عن يميني وشمالي، كنت أتجه بسرعة نحو الجهة الأخرى من ذلك الخليج حيث المدينة الهائلة، لكنها أبعد بكثير مما تبدو.

هُنَاك

جرت بعض الحركات البهلوانية التي كنت أشاهد الشباب بحسرة وهم يستعرضون بها على الجِت سكي.. فحاولت رفع نفسي وأنا منطلق بسرعة هائلة فارتفع معي الجِت وانطلقت في الهواء لبضع ثوان، لاً عود للمياه وأغوص فيها كالسهم قبل أن أطفو مرة أخرى؛ فكُرت للحظة في انتهاء وقود هذا الشئ وأنا في وسط البحر، لن أجد من ينقذني هنا، فقررت أن لا أتمادي في تهورٍ وعدت أدراجي؛ لاحظت شخصاً آخر يتقدم إلي على الجِت، كان متوجهًا نحويا بالضبط، أعتقد أنه من رجال الأمن يريد أن ينبهني أنني تجاوزت جميع لوائح السلامة؛ كان يزيد من سرعته وهو يتقدم نحويا. من هذا المجنون؟ سيحطّمنا جمِيعاً! حاولت الانحراف بالجِت ولكنه ارتطم بي من الجهة اليمنى ارتطامة عنيفة فطرت عن الجِت وسقطت في المياه، شعرت باللام رهيبة في ساقي اليمنى وصدرى وحاولت أن أصارع المياه لاً عود للسطح والتقط أنفاسي، ولكنني شعرت بكلمة عنيفة في بطني وبذراعين قويتين تسحبني نحو الأسفل..

تمزّقت رئتي وهي تستنزف آخر ذرّة أكسجين بداخلها، بدأت أفقدوعي، لم أعد أرى سوى الظلام، وسمعت صوتاً واضحاً يوبيخني: "دائماً تتأخر يا حسام!" ورأيت وجهها.. رأيت وجه أمي بوضوح وهي تعاتبني!

إبراهيم عباس

حاولت أن أصل إليها ولكنني شعرت بذراعين أحاطت بخكري  
وسحبتي إلى الأعلى بسرعة وسمعت صرخة انطلقت في لحظة  
وصولنا لسطح الماء:

"حسااام.. حسام! خليك معايا يا حسام! أصحى يا  
حسام.."

فتحت عيني بتثاقل، شعرت بوخذ الأوكسجين وهو يعود إلى  
شرايين دماغي وبدأت أميز ما حولي، إنها ملائكة! تحيطني  
بذراعها وتسبح بكل قوتها نحو الشاطئ، ألتقطني على الرمال  
وألقت بنفسها جواري لتلتقط أنفاسها، ولم تلبث أن هبت  
تقهقني، سحت رأسي على حجرها وأخذت تطمئنني بتوتر  
وهي تقول:

"حسام خليك صاحي يا حسام، لا تقفل عينك.."

"لا تخافي أنا زي الحصان أhee! لكن ما عندي مانع  
تعمل لي تنفس اصطناعي من باب الاحتياط"

قلتها وأنا أسعف، لم تلتفت لمزحتي، فقط ضمت رأسي لصدرها  
وهي تبكي وتقول:

هُنَّاك

"حرام عليك تسوي فيا كذا! كنت حتموتني من الخوف عليك!"

"ما كنت أدرى إنه فيه شيء ممكِن يضرّني في عالم الأحلام!"

## أحلام؟ برضك تقول أحلام؟!

قالتها وهي تزع قميصي وتشقه بطرف أسنانها لترتبط به ساقيه  
التي تترنف بغزاره..

"شاييف الجرح؟ شاييف الدم؟ حاسس بالألم؟ كل هذا حلم؟"

تحسست سامي لتأكد من عدم وجود كسور وكأنها طيبة  
استشارية في العظام، وتحسست الكدمة الزرقاء على صدرى ..

"الحمد لله ما فيه ك سور.."

"عندكم هنا مستشفى؟"

"ما يحتاج، رح تتعافى بسرعة؛ بس خلينا نستريح شوية  
وبعدها أوصلك.."

إبراهيم عباس

استلقت على الرمال واستلقيت جوارها لألتقي عتابها:

"حسام إش سويت بنفسك؟ إش حصل بالضبط؟"

"تسأليني أنا؟ كنت أحسبك تعرفي كل شيء هنا؟"

"إش يدريني باللي حصل لك.. أنا حسيت إنك في خطر  
وجيست على طول!"

"إنتي بتجنبيني؟ كيف عرفت إني في خطر؟ وكيف  
عرفت إني هنا أصلاً؟ كيف بتعرفي كل شيء أفكر فيه؟"

"عادي إش فيها؟"

"كيف عادي؟"

"قلت لك غريبة! تقدر تقول تيليباشي، ما عمرك سمعت  
بالتيليباشي؟ التخاطر؟"

"أسمعني يا ملاك أنا لا أؤمن بهذه التخاريف!"

"هذا ماهي تخاريف، التخاطر موجود عند كل  
الكائنات، الحيوانات تتحاطب مع بعضها بالتخاطر! مو  
بس الحيوانات، حتى النملة تعرف تحاطر!"

هُنّاك

"أنا ماتي نملة لا"

"البشر عندهم أقوى جهاز تخاطر.."

"لو عندي جهاز تخاطر ما كان عديت اختبارات

"الجامعة بالدفّا!"

"عندك لكنك ما بتسخدمه! جهاز التخاطر عند البشر"

ضعف وضمر لأنهم أهملوا واعتمدوا على وسائل

"الاتصال المباشرة والمحسوسة"

"يعني إنتِ تحسّي بكل شيء أحس بييه؟"

"تقريباً!.. دحين سيبك من كل هذا وقول لي إش اللي

"حصل؟"

"واحد مجنون صدمني بالجيـت.."

"مستحيل! مو معقول! فاكر شكله؟"

"ما انتبهت! إنتِ لو تفهمّيني بس أنا فين عشان نعرف

"إش اللي حصل!؟"

"ما أقدر!"

ابراهیم عباس

"طب حاسّلك وإنْتَ جاوبِي بِإِيُوهْ أَوْ لَا .."

"فضل پا سیدی.."

"أنا بدأت أتأكد إني في تجربة دماغية، يعني مخدر أو في غيبوبة.. وإنه كل اللي باشوفه عباره عن برنامج افتراضي واقعي وأنا عايش فيه ودماغي مقتنع إنه حقيقي!"

اُش قصدك؟

"ماتريكس، إنسيبيشن، ذي سل، ثانيلا سكاي، توتال  
ريكول.. فكرة مستهلكة شفتها في خمسين فيلم!"

"هذا التفسير المنطقي الوحيد اللي بيحصل هنا، كل شيء هنا ذي الحلم.. ذي السحر!"

"ذى السحر؟"

إِيُوهْ سَحْرٌ! كُلُّ شَيْءٍ مُثَالٍ، كُلُّ شَيْءٍ يَسْتَجِيبُ لِلْمَسَاتِي  
وَبِقَادِيَّةٍ أَفْكَارٍ...»

هُنّاك

"باسألك سؤال: تخيل إنك تاخذ تلفونك أو كمبيوترك  
وتوريه لجد جدك.. تخيل يشوف الأفلام ويعمل تشتات  
مرئي ويترفج على اللي بيحصل في الدنيا في جهاز قد  
الكف.. إيش حيقول؟"

"سحر!"

"زيك بالضبط..! لو استمرت الثورة التكنولوجية في  
عالنك بنفس الإيقاع رح تشواف كل الأجهزة اللي بتقول  
عنها سحر في كل بيت، في غضون عشرة أو عشرين  
سنة بالكثير!"

"يعني أنا في المستقبل صح؟"

"لأ!"

ثرت فيها هذه المرة.. لم أعد أحتمل! اعتدلت في جلستي  
وأمسكت بتلايبها وهزرتها بقوة وأنا أصرخ:

"أجل أنا فين؟ قولي لي!! أنا فين؟"

إبراهيم عباس

رأيت نظرة رعب في عينيها الواسعة فازداد انعكاس السماء  
والبحر عليهما:

"خلاص حاقول لك على كل شيء!"

قالتها وهي تتلفت وكأنها تخشى أن يرانا أو يسمعنا أحد..

"هذا اللي انت شايفه عبارة عن جزء من تجربة علمية  
سرية!"

"تجربة سرية؟!"

"أنا اسمى ناتاشا.. ناتاشا تورغينوف.. عميلة روسية من  
أصول جورجية في منظمة  
Международной Научной Разведки العلمية! التقنيات هنا ما  
تحطر بيالك، إنت موجود عندنا من سنة كاملة! سوينا  
لك مجموعة عمليات تجميلية مع تحوير جذعي  
وجيني.. أنجح عملية تحوير جيني كاملة للآن!"

هبط علي الخبر كالصاعقة، كان لابد أن أستنتاج أبني فعلاً داخل  
تجربة علمية! لا بد أن أستنتاج أن مخلوقة كهذه لا بد وأن تكون  
نتائج عمليات تجميلية وتطويرات جينية وتدريبات استخباراتية!!

هُنّاك

واصلت ملاك.. أقصد نتاشا تورغينوف:

"أنا المكلّفة بملفك، طبعاً التدريبات بدأت من عدة سنوات كان لازم أدرس حالتك وتاريخك وكل ما يتعلّق بك، لدرجة إني اتعلّمت لغتك ولهجتك وكل تفاصيل حياتك! لازم نراقبك وانت عايش في بيئه مثاليه عشان نقدر ندرس كل التطورات الجسمانيه والذهنيه اللي طرأت عليك بعد العملية. مستحيل يسمحوا لك تخرج وتخرب التجربة..".

"مو معقول، مستحيل أصدق! ليش أنا بالذات؟!"

"ومين قال إن البرنامج لك إنت بالذات، إنت حاله من مئة وأربعين حالة تم اختيارها من مختلف بلدان الأرض، كل حالة تستضيفها هنا فترة معينة طبعاً بعد ما نعدل بعض الأشياء في هذا العالم الا صطناعي وندرّب السّكّان هنا، أو بالأصح العمالء على التعامل مع كل حالة على حدة!"

"يعني أنا فار تجارب؟ حياتي تغيّرت للأبد؟!!"

إبراهيم عباس

"لا.. هذى كمان مخاطرة بالنسبة لهم، بعد انتهاء التجربة رح يعملو لك عملية تحوير جيني عكسية، ويرجعوك ويقنعوا الناس إنك تعرضت لحادث فقدت ذاكرتك لفترة إلين ما لقيوك قوات الأمن في قرية وتعرفوا عليك ورجعوا لأهلك.. طبعاً الحادث رح يكون مبرر للتغييرات اللي بتبقى بعد العمليات، بس اطمئن رح تنسى كل شي شفته هنا، واللي حتتذكره رح يكون زي الحلم.."

"وبعدين؟"

"وتوله توله وخلصت الحدوته!"

قالتها واختفت ملامح الجدية المصطنعة من وجهها لتحل محلها ضحكة طفولية مجلجلة خرجت من أعماقها واستلقت على الرمال وهي تواصل الضحك؛ تمنيت أن أصفعها بشدّه على خودها الدرّاقية.. تمنيت أن أكلّمها وأحطم بعض أسنانها اللؤلؤية! ولكنني لم أتهور.. فقط وقفت بصعوبة على ساق واحدة، وثبتت ساقي الأخرى التي لا تزال تترنّف، وتركت ملاك؛ وقفَت فوراً لتلحق بي وأخذت ذراعي حول كتفها وأحاطت خصري بذراعها لتساعدني على المشي..

هُنّاك

"حسام بلا بياخة.. لا تكون زعولي!"

"لو كنتي مكانى كان حسيّتي باللي أنا فيه!"

"والله إني حاسه بيـك.. وقلبي يتقطع عليك! والله إني

"باسوي كل شي أقدر عليه عشانك!"

قاطعتها معترضاً:

"حاسـه بيـ؟ مستحيل!! أنا حياتي اختفت ومانى قادر

أرجع لها، أبغـى أحـقـ أحلـاـمـيـ، أسعـدـ أمـيـ وأختـيـ

وأنـجـحـ يـنـ فيـ وظـلـيفـتـيـ، إـبـغـىـ أـتـزـوـجـ وأـفـتـحـ بـيـتـ وأـخـلـفـ

"عيـالـ؟"

داست عبارتي الأخيرة على قلبها بقسوة، فتجاهلت كبراءـها

وهي تقول:

"يعـنيـ ماـ تـمـنـيـتـ حتىـ إـنـيـ أـرجـعـ معـاـكـ؟ـ وأـصـيرـ جـزـءـ منـ

"ـ حـيـاتـكـ؟ـ"

استمررت قسوـتـيـ الجـارـحةـ وـأـنـاـ أـقـولـ:

إبراهيم عباس

"تعيشي معي؟ قصدك أتزوجك؟ مستحيل! ما اختلفنا على جمالك لكنني ما أعرف عنك أي شيء.. ما أعرف أصلك ولا فصلك ولا عائلتك.. ولا حتى ديانتك ومذهبك!"

كانت عباراتي أشد إيلاماً وامتهاناً من الصفعات، تبّاً لي! كيف سألف رعنوني؟ أتمنى أن لا تكون هديتها سقطت من جنبي؛ لحسن الحظ لا تزال هنا:

"قضلي"

التفتت بوجهها التي أشاحته قبل قليل وافتضحت دمعتها، ولكن الدمعة تبخرت بابتسامتها عندما رأت العلبة الزهرية الصغيرة:

"حسااام"

التقطت العلبة وفتحت شريطتها الفضية المحمولة المبتلة بالهفة وكانت أن تقعد الوعي عندما رأت هديتي البسيطة، الجمجمتها سعادتها، فتناولت العقد الصغير من يدها، وتقاولت على قدمي السليمة لألف حول ظهرها فرفعت هي شعرها من الخلف لتكتشف عن جيدها؛ أتمنى أن لا ينزلق القفل الزنبركي من بين أظافر سبابتي وإيهامي مئة مرة كما يفعل كلما حاولت أن أساعد مرام في ارتداء طقمها الوحيد؛ سحقاً كل هذا التطور هنا ولم يخترعوا قفلاً سهل التركيب.. آه نجحت أخيراً!

هُنَاكْ

"أتمنى يعجبك!"

التفت إلى ملاك وهي ممسكة بجناحي الألماسة بين أناملها  
بمحاذاة نحرها وسعادتها تفيض عليها فتزيدها بريقاً زهرياً  
خجلاً من جمالها. فاجأتهي ملاك بمعانقتي وطبع قبلة صاهرة  
على خدي؛ صدمة لم يحتملها قلبي ولا سامي الوحيدة التي  
تركتني، فاختل توازني ووقيعت.. وقعنَا سوياً قبل أن تنهي قبلتها..  
رفعت رأسها ونظرت إلى عيني مباشرة:

"هذِي أَحْلًا لحظةٍ في حِيَاتِي، رَبِّي مَا يحرمنِي مِنْكَ يَا

"حسام!!"

تلك الوضعية أمام الملاً أيقظت بداخلي الحس المحفوظ فأزاحتها  
بلطف، فوقفت وساعدتني على النهوض واحتضنتي بحب  
لتركتني أشاء المشي، فقلت بلا مبالاة مصطنعة:

"يعني، حاجة بسيطة كذا، تقدري تعبريه عربون امتنان  
على عزومتك اللطيفة، على فكرة هذِي الْمَاسُ أَصْلِي!  
مو فالصو، ولو نهَا نادر جداً"

إبراهيم عباس

أود أن أسألكم سؤالاً، وأرجوكم أرجوكم أجيبوني بصراحة: هلرأيتم أو سمعتم في حياتكم عن شخص أكثر صفافة وبجاحة وتخثراً في الدم مني؟!! الحمد لله أنها استحملتني:

"حسام، هذى أول هدية تجىنى في حياتي!، ما يهمنى تكون من الماس أو حتى من قزاز.. المهم إنها منك إنت يا حسام"

هل أصدقها؟ يستحيل أن أصدق أننى أملك أي شئ يجعل إنسانة عادية تحبّنى ناهيك عن هذا الملاك!.. قطعت حبل أفكارى عندما قالت:

"لكن هذا ما يمنع إنى زعلانه منك!! وعلى فكرة.. أنا ما عملت ولا عملية تجميل.. كله خلقة ربنا! أتمنى ما يكون في شكلي شي مو عاجبك!!"

سحقاً.. يجب أن أنتبه حتى أثناء حديثي مع نفسي، فهذه المجنونة تستمع إلى خواطري، أظنها تعرف ما أفكر فيه الآن.. سحقاً سحقاً!!

"حسام أرجوك لا تشغل نفسك بشيء دحين، أحسن شيء إنك تسair الأمور وكل شيء ينحل بإذن الله!"

هُنَاك

"على قولك، متتأكد إني رح أتذكرة كل حاجة، وأعرف أنا  
فين وكيف أرجع لأهلي؟"

"وأنا رح أساعدك! صدقني.."

"وأعْرِفُكُمْ عَلَيْهِمْ"

أخلجها تلميحي جداً، كنا قد وصلنا للفيراري، فازاحت بعض  
الأكياس لتجلسني بجوارها وتقود هي السيارة؛ كانت معظم  
آلامي قد تلاشت والتألمت جروحى عندما وصلنا لمدخل البرج:

"حسام.. لو احتجت أي شي قول لي.."

"أحتاج قلم.. قلم ودفتر عشان أكتب كل حاجة تحصل  
هنا!"

"يعني اشتريت نص المول وما عرفت تشتري قلم؟! ولا  
يهمك رح أجيب لك جهاز يغريك عن كل شي.."

"فكرة القلم خطرت بيالي الآن، أبغى قلم.. قلم عادي  
ودفتر؛ ما حاقدر أثق في أي جهاز هنا.."

"ماشي زي ما تبغى، أي أوامر أخرى يا حسام باشا؟"

إبراهيم عباس

"لا تزعلني مني.. الله يخلّيك يا ملاك لا تزعلني مني"

تهللت ابتسامتها لعبارة فلم تجبنـي .. وإنما اكتفت بتناول يدي  
ولم ترفع عينيها وهي تقول:

"أنا لو علي أهديك بروحـي يا حسام.."

تأملتها .. يستحيل أن يكون فيضان مشاعرها مجرد تمثيلية،  
يستحيل أن يكون كل هذا مجرد وهم! أعرف أنـني أثقـ فيـكـ يا  
ملاـكـ .. أعدـكـ أنـ أطـيقـ ما طـلـبـتـهـ منـيـ وأنـ أـسـاـيـرـ كـلـ شـئـ إـلـىـ أنـ  
أـعـرـفـ أـيـنـ أـنـاـ .. وـأـعـوـدـ لـأـهـلـيـ .. أوـ أـيـأسـ .. وـأـعـيـشـ بـقـيـةـ عمرـيـ  
معـكـ .. هـنـاـ!

هناك

(4)

عائمه H

ابراهيم عباس

هناك

لأول مرة أشعر بالإنهاك هنا، وصلت غرفتي، أو جناحي، أو هيلاتي.. لا أعرف ماذا أسميهما، المهم وصلت ومررت يدي على البقعة التي ظهر فيها الحمام الخرافي ففاص جزء من الحائط وإنزلق وتوجهت الإضاعة بالتدريج؛ في وسطه شئ يشبه حوض الجاكوزي ولكنه بحجم مسبح مصغر، دائري الشكل، أرضيته ليست صلبة وإنما لينة كأنها وسادة جلدية، جلست في طرفه، وأرحت ظهري على حافته اللينة، لاحظت الفتحة الصغيرة التي يفترض أن تبرز منها الشاشة، أعتقد أني بدأت أتأقلم على التكنولوجيا في هذا المكان، مررت يدي فوق العمودان وأضاعت بينهما الشاشة ثلاثية الأبعاد، كانت هناك صور مجسمة للخيارات: تروبيكال بارادايس، آنسينت سبا، مانهاتن ميدنات.

أغراني التروبيكال بارادايس، منظر متحرك لشاطئ جزيرة استوائية.. مياه فيروزية ونخيل وأزهار وأمطار.. لم أر مثلها سوى في خلفيات سطح المكتب، فاخترتها. وفجأة تحولت جدران الحمام وسقفه إلى فراغ ثلاثي الأبعاد يجسد أجواء تلك الجزيرة ويصدر أصوات الأمواج والعصافير.. وأنهمرت الأمطار فعلاً

ابراهيم عباس

كان الدش فوق رأسي يغطي مساحة الجاكوزي العملاق بالكامل، فانهمرت المياه فوقني.. تقوم بعمل مساج احترافي لكل ملليميتر مربع في بشرتي، وتساقطت من السقف بثلاث أزهار عطرية، وبدأت أرضية الجاكوزي الجلدية وحافظتها بالتحرك تحتي وحولي كأنماל أروع خبراء التدليك. أعرف: أستطيع أن أمضي بقية عمرني في حمام كهذا!

مررت ساعات، نسيت أنني أمضيتها في الحمام بعد أن افتعلت أنني انتقلت لأضخم منتجعات المالديف. كان ذلك الدش كفيلاً بضم النشاط والانتعاش في أوصالي، لقد نسيت آلام صدرى وساقي، في الواقع اختفت الجروح والكمادات تماماً؛ قمت بنشاط بعد أن توقف هطول الأمطار وتلاشت الصور، تناولت أحد الأرواب القطنية المخملية المزينة بالحرف H ووقدت أمام المرأة التي تقطي جدار الجهة المقابلة، تأملت وجهي لأول مرة منذ أن وجدت نفسي هنا، هذا أنا.. وليس أنا، لا يمت بصلة لشكلي القديم، وجهي كامل الا ستدارة شديد السمرة أصبح قمحياً نحيلأ تزيشه حواف عظام خدي وفكى، شعرى الذي لا أتجرا أن يتتجاوز طوله النصف سنتيميتراً لأستر تجاعيده أصبح متوجهاً يكاد يلامس أكتافى، اختفت نظارتي وسكسوكى، ولكنى لازلت أرى نفسي خلف هذا الوجه الجديد!

هناك

شعور لا أستطيع تفسيره، ولكنني أعلم يقيناً أن روحي تحمل هذا الجسد! كنت واقفاً أمام شئ أشبه بالمقصلة، بحثت عن الشاشة لأعبث بها كعادتي ويرزت بالفعل، ولفت انتباхи قارورة عطر ثلاثة الأبعاد تدور في الفراغ وسط الشاشة، اخترتها فترaciت أمامي مجموعة من العطور، جميع المطمور التي أعشقها، اخترت إيف سان لوران المفضلة لدى، فاندفع بخار العطر من مضخات صغيرة منتشرة في كل مكان، تبعتني سحابة الإيف سان لوران عندما خرجت من الحمام متوجهأ نحو الكرسي الوثير، لقد تذكرت.. كنت أطلق على كنبتي المتواضعة التي اشتريتها من إيكيا في لحظة بذخ اسم: "إيوان الحسام" وكان ممنوعاً باتاً أن يجلس عليها أحدٌ غيري، سأطلق على هذا المقعد لقب "الإيوان" إذاً تيمّناً بكنبتي العزيزة ووفاء لها جلست -أو بالأحرى استلقيت- على الإيوان بعد أن أخذت تشيكيلة من الشوكولاتات والمكسرات من الكوفي شوب المصفر في غرفتي، كانوا يسمونني مونستر الشوكولاتة من شدة إدماني! تذكرت إحدى هواياتي المفضلة: عملية "العدوان الثلاثي" .. كنت أتناول سنكرز وتوكمس وكيلكات دفعه واحدة وأفاجئ معدتي بهجوم الشوكولاتة الشامل، اليوم جهزت نفسي للعدوان العُشاري.. لأبدأ العمل الجاد!

ابراهيم عباس

تناولت القلم والدفتر، وبدأت بتدوين كل شئ، قسمت الدفتر إلى ثلاثة أقسام: كل ما يحصل لي هنا بالتفصيل، كل ما أتذكره من حياتي السابقة، وكل الملاحظات والحقائق العلمية التي أتوصل إليها، وبدأت بتدوين كل شئ. أمضيت عدة ساعات وأنا أكتب وأبحث في الإنترنت عن الإجابات والإشارات التي قد تساعدني، وتوصلت للسر الأكبر والمفتاح لحل اللغز الذي وجدت نفسي فيه:  
العقل الباطن<sup>1</sup>)

العقل الباطن هو القوة الهائلة التي تسيطر على مقولنا، وأجسادنا، بالرغم من أنه ليس له وجود ملموس في الدماغ. لا يوجد عضو في جسم الإنسان اسمه "العقل الباطن"! العقل الباطن هو الأرشيف الذي يسجل كل الذكريات والأحداث التي يمر بها الإنسان بحذافيرها وتفاصيلها. العقل الباطن هو المسمى الذي يفضل العلماء إطلاقه على الروح! كان دماغي يعمل بكفاءة ألف كمبيوتر وأننا أتقرب بين الواقع بسرعة ويحلل كل كلمة أقرؤها ليكون صورة منطقية علمية لعلاقة العقل الباطن بالعقل الوعي والعالم المحسوس. العقل الوعي ليس سوى وسيط بين العقل الباطن والعالم من حولنا، منطقة الذاكرة في الدماغ ليست إلا مستودع مؤقت للذكريات الحديثة ومركز للتواصل مع مخزون المعلومات اللامتناهي في عقولنا الباطنة.

هناك

خلايا الدماغ مهما بلغ عددها لن تستطيع استيعاب ذلك الكم الهائل من المعلومات المخزنة في داخل كلِّيَّنا. ولا تثبت تلك الخلايا أنْ تموت أثناء حياتنا أو تحمل بعد وفاتنا، وتبقى أرواحنا، عقولنا الباطنة، تحمل ذكرياتنا، تحمل ذواتنا، لتشعر بالبعث والحياة من جديد عندما يأذن الله لها بأنْ تاحت جسداً جديداً بدماغ جديد فتستيقظ.. ونستعيد ذكرياتنا. فعلًا، لو مُحيت جميع ذكريات شخص ما وخزنت محلها ذكريات شخص آخر فستكون النتيجة الظاهرة وهبة الأول واستيقاظ الثاني في جسد جديد، فتحن لسنَا سوى أرشيف من التجارب والذكريات تحمله أرواحنا.

وعلى هذا الأساس فأنَا أحفل جسداً جديداً في عالم جديد، جسد أكثر كفاءة في عالم أكثر مثالية؛ والأهم من كل ذلك أن هناك أمل في عودتي لجسمي وعالمي الأصلي، ولكنني لن أعود قبل أن أستغل كل لحظة هنا! سأستغل قدرات هذا الجسد والعقل الخارق الذي أتحكم فيه الآن لترس عقلي الباطن بجميع المعلومات والمهارات التي قد أستقيد منها عندما أعود.

ابراهيم عباس

تعمقت في أبحاثي، القلم في يدي، والإنترنت أمامي، وطبق الشوكولاتة على حجري وقد اكتظ بالملفات الفارغة، تناولت لوح كيتكات بأربعة أصابع، أزاحت الغلاف الورقي ليكشف القصدير الرقيق البراق، كم اشتقت إليه، نزعته بعناء كي لا تلتصلق به الشوكولاتة، هدرجة حرارتها وصلت المرحلة الحرجة التي تكون فيها بين الحالة الصلبة والحالة السائلة، ونجحت لم تلتصلق الشوكولاتة سوى بأصابعه وبقلمي.. زلست أصابع الكيتكات البريئة دفعة واحدة وأنا أتأمل ما كتبت، أعتقد أن ما كتبته يكفي لتأليف رواية واقعية فانتازية وكتاب علمي ثوري!

لا أزال عاجزاً عن تصديق كل هذا، ياترى هل سيمحتفظ عقلي الباطن بكل هذا الكم من المعلومات والمهارات؟ راودتنى فكرة مجنونة: أن أحترف جميع المهارات التي فشلت في تعلمها! أستطيع أن أتعلم أي شئ هنا بسهولة!! لطالما حلمت أن أتعلم الرسم والعزف على القيثار والفنون القتالية ومجموعة لا بأس بها من الهوايات الطموحة التي لم أخرج منها سوى بإنجاز وحيد: احتراف البلاستيشن.. والبلاستيشن فقط.. لعبة فيما بالتحديد!

هناك

ولكن قبل أن أتمادي في أحلامي يجب أن أجرب اختباراً هاماً! على أن أتأكد أن هذا العالم واقعي، وأن المظاهر التكنولوجية فيه حقيقة وليس مجرد حبكة لخدعة وهمية، ولكن كيف أتأكد؟ كيف تعمل جميع هذه الآلات؟ كيف تشعر برغباتي وتتنفيذها؟ هل هناك من يراقبني الآن؟ أفرزعني الفكرة، فوقفت متربعاً وسط غرفتي وروبي.. بقع الشوكولاتة تغطي فمي وأصابعي أنظر للسقف وألوح بقلمي الملاط بالشوكولاتة وأصرخ:

ـ أحد سامي؟ هاه؟ إنتو مين؟ تكلموا! أنا فين؟ أنا فييين؟ ملاكم؟ إنتمي سامي؟

هذا القلم قد يحوي جهاز تنسكب فائق الدقة بين نقوشه العقدة، سأكسره لأتأكد! حاولت أن أكسره بيدي وبأسنانى بلا فائدة، اتجهت نحو ماكينة القهوة وحاولت نزع الغطاء المصقول أمام شاشتها، حاولت نزع ذلك الغطاء باستخدام رأس القلم المدبب، ونجحت في ثني جزء من طرفه، كانت هناك خيوط حريرية رفيعة تمر خلالها ومضات ضوئية، كأنها سيارات في طريق سريع، تجتمع الخيوط الرفيعة في رقاقة متمرکزة أسفل الجزء الذي تبرز منه الشاشة، الرقاقة أصغر من ظفرى ولكنها تعج بنقاط مضيئة متحركة وكأنني أنظر إلى مدينة نيويورك مصغرة.

ابراهيم عباس

مررت بيدي فوقها فتوترت حركة النقاط المضيئة، إذاً هناك  
تقنية فعلاً، ليست مجرد خيالات. قاطعتي طرقات على الباب  
وصوت ملاك:

”خلصت تحريراتك يا شرلوك هولمز؟“

فتحت الباب و..

كل مرة أراهاأشعر بتلك الشهقة الدفينة من روعة جمالها،  
والرعشة التي تسري في جسدي ابتداء من حدقتي عيني اللتين  
تلقتا الصدمة الأولى وحتى أطراف أناملي؛ كلما غيّرت ملابسها  
وتسريحتها تتتحول لخلوقة أخرى أكثر جمالاً من سابقتها..  
اختارت هذه المرة ثوباً بسيطاً يشبه ثياب هتافات الريف الأوروبي  
في القرن الماضي وعقدت خصلتين جانبيتين من شعرها على  
شكل ظفيرتين التقتا خلف رأسها:

”إنت سمعتني صبح؟“

هزت رأسها نفياً وهي تنظر إلي وقد اكتست عينيها براءة  
مصنوعة ماكرة:

”لأه!“

۱۰

فاللهم انتك الملكة الملتصقة بالحنك لثبت مكرها وواصلت:

أنا سمعتك وشفتك كمان! ١

وقفت وسط الغرفة بعد أن قالتها ونظرت للسقف وبدأت تسخر

من صرافي وتقليدي:

"أحد سامعني؟ هاء؟ إنتو مين؟ اتكلموا؟ فينك يا

ملائک؟ اُنقدیفی ۱۱

تفجرت ضحكتها الجنونية الساحرة، وانفجر معها غضبي:

کنت متأکد!

من أیش؟

**إنك بتتجسس على طول الوقت!**

أمو قلت لك أنا العمilla الروسية ناتاشا تور غينوفا

"طیب لیش ما طلعتی لی اویل ما نادیتک؟ بیما اونک

شایفانی طول ایوقت؟

إبراهيم عباس

"يا سلام؟ تحسبني جنية؟ اتحممت وغيرت ملابسي  
وجيتك؟"

"طب ليش؟ ليش تراقبيني طول الوقت؟"  
"أولاً لا نك توحشني جداً جداً وما أقدر أبعد عنك  
لحظة لا"

"ثانياً وهو الأهم: لأنني خايفه عليك، من جد خايفه  
عليك؟"

"خايفه على من ليش؟"  
"خايفه أحد يحاول يضرك.."  
"أها.. أعتبر هذا لفظ ثانبي؟"  
"إيش رأيك ما نضيع الوقت في الأسئلة ونبدا نحل  
الألغاز؟"

"استبني شوية؟"

هناك

توجهت نحو غرفة الملابس، دخلتها وأغلقت الباب خلفي كي لا تسترق النظر، أعلم أن هذه المجنونة تستطيع أن تراني وفتقما تشاء.. حتى ولو كل شئ يهون إلا كرامتي ! لبسست الجينز وأخترت قميص بولو أزرق داكن وخرجت، تناولت دفتري ودسته في جيبي الخلفي وأناأشير لها:

"تفضلي قدامي .. عشان نحل الألغاز !!"

تجاهلت صرامتي وتعلقت بذراعي وشدتني معها إلى خارج الغرفة.

عندما رأيت البرج المركزي في مجموعة الأبراج التي أسكن فيها خيل إلى أنه على بعد مسافة بسيطة، وذلك بسبب ضخامته، لقد كان يفصلنا عنه ممر مائي شاسع، خليج تخلله القوارب واليخوت ذهاباً وإياباً، كانت ملاك كعادتها مستعدة، جهزت يختا هارهاً انطلق بنا نحو البرج المركزي، أخذتني من يدي إلى مقدمة اليخت، ورأيت آخر ما يمكن أن أتوقعه: بيانو أبيض أنيق مستقرًا على طرفة، سحبتني وأجلستني على المقعد وجلسست هي على ظهر البيانو، وقبل أن أفتح قمي تناولت ناياً معدنياً وبدأت تعزف ..

إبراهيم عباس

### أجمل لحن سمعته أذناني؟

أغمضت عينيها وهي تعزف الألحان من أعماق روحها، كانت  
تقتحمها لتسمح لبعض دعاتها بالفرار وتغمرني بسلامها  
الفيروزي. بدأت أتذكر ذلك اللحن..

My heart will go on ..  
من فيلم تيتانيك.. هاهي ملاك تتعش ذاكرتي مرة أخرى، أتمنى  
أن أشاركها العزف، مدلت أنا ملي بتردد، نسست أول مفتاح على  
البيانو فرسم دماغي لوحه لجميع النغمات التي تدرج من أكثرها  
عمقاً لأشدتها حدة مروراً بالمفتاح الذي ضفتته، تذكرت اللحن  
جيداً، وبدأت بالعزف، تفجرت بداخلي نشوة الألحان فأطلقت  
لروحى العنان ولحقت بملائكة، تراقصنا بين الناي والبيانو ولم  
تتوقف حتى توقف اليخت عند مرفا البرج المركزي..

"تفتكر يا حسام لما شفت الفيلم لأول مرة؟ همركتي كان  
١٦ سنة، كنت ليتلها سهران مع أصحابك وانقرجتوا  
الفيلم مع بعض، فاكير لما بكيت في نهاية الفيلم؟"

"أنا هه أنا مستحيل أبيكي على فيلم لا"

هناك

تجاهلت كذبتي وواصلت:

"أنا كمان بكيت معاك!"

هل أسألهـا كيف عرفت؟ مللت من السؤال!

"إنتِ كنتِ شايقاني حتى وأنا عايش بين أهلي يا ملاك؟"

أومأت إيماءة بريئة هذه المرة والدموع لا تزال معلقة على  
أهدابها:

"كنتِ شايقاك، وباتعذب كل يوم ألف مرة من شوقي لك  
وبيعدك عنـي!"

سرحت ببصـرها للأفق، وأطلقت تنهيدة أذابـتي:

"فاكرة كل لحظة في حـياتك يا حـسام، أنا فـسرحت  
بـولـادـتكـ أـكـثـرـ منـ أـمـكـ وأـبـوكـ! أـقـدرـ أـسـمـعـ لـكـ الـكلـمـاتـ  
الـلـيـ اـتـلـعـمـتـ تـنـطـقـهـاـ بـالـتـرـتـيبـ،ـ ماـ كـنـتـ أـقـدرـ أـنـامـ لـهـاـ  
أشـفـوـكـ مـرـيـضـ،ـ أـعـرـفـ بـالـضـبـطـ عـدـدـ ضـحـكـاتـكـ..ـ وـعـدـ  
دـمـعـاتـكـ..ـ خـمـسـةـ وـعـشـرـينـ سـنـةـ وـأـنـاـ أـنـتـظـرـكـ لـحـظـةـ  
بـلـحـظـةـ!ـ كـلـ لـحـظـةـ تـمـرـ أـبـطـاـ مـنـ الـلـيـ قـبـلـهـاـ..ـ"

ابراهيم عباس

قررت أن أبتر أسئلتي، لأن إجاباتها لا تزيدني سوى حيرة  
وارتباكا، ففزت من اليخت وساعدتها على النزول، وأحاطت كتفها  
بنراعي وكأني المسؤول عن حمايتها ونحن نمشي وسط زحام  
المارة نحو ذلك المبني الذي يزداد ضخامة كلما اقتربنا منه،  
وتوقفنا أمامه ورفعت رأسي وبالكاد رأيت المدينة المعلقة على  
قمته الشاهقة، شعرت بألم طفيف في مفاصل رقبتي ..

"ياااه! أنا بس نفسى أعرف من صاحب كل دا؟"

"إنت ما انتبهت للشعار؟"

أشارت للشعار الذي يزين المبني، فعلاً هذا الشعار في كل مكان،  
كيف لملاحظة شعار يحمل الحرف H وسط قرص من النقوش  
التي تتماشى مع روح المكان وتصميماته.

"أتوقع شعار هندق.. الهيلتون يمكن؟"

أطلقت ضحكتها المدوية وهي تقول:

"لا يا فالح، مش الهيلتون!"

"طب إشن معناءه؟.."

"هذا أول حرف في اسم حبيبي.. حسام!"

هناك

(5)

الخمسة

ابراهيم هباس

هناك

لولا هلقتي على أهلي لتمتّي أن أبقى هنا، لولاهم لما ترددت لحظة واحدة في أن أبقى بجوار ملاك أستمتع بكل هذا النعيم، أنا على أتم الاستعداد للتخلّي عن حياتي السابقة ومعارفي وأصحابي ووظيفتي ومدينتي.. ولكن أهلي.. آه.. كم تمنّيت أن أحضرهم لتعيش سوياً هنا وتتسى جميع همومنا، تتسى الإسجارات والمصاريف والفواتير والأقساط ومراجعات المستشفيات وبهذه الواسطات.. وتعيش.. فقط تعيش!

أعتقد أنها إحدى مزحات ملاك الثقلية! يستحيل أن يرمز حرف H الذي يزين كل شئ هنا لاسمي أنا..! اعتقادي هذا استمر مدة لم تتجاوز الدقيقتين، فعندما اجترنا مدخل ذلك البرج، أو بالأصح المدينة المكتظة داخل المبني، رأيت تمثلاً عملاقاً يتوسط الساحة المركزية الشاسعة، ارتفاعه يناظر بناية من عشرة طوابق، كان تمثلاً لشاب يمد يده اليمنى للسماء كأنه يلتقط النجوم، يقف بين زوبعة من الرموز والحرروف بمختلف اللغات، تبدأ من قاعدة التمثال وتلتقي حوله بشكل حلزوني ويتضاعف عددها إلى أن تصل للحرف H الذي تكاد تلتقطه يد التمثال المدوّنة.

ابراهيم عباس

كان التمثال من الكروم المصقول يعكس كل ما حوله وكأنه قالب من الزئبق المتماسك، والمعروف مصنوعة من معادن وزجاج بألوان مختلفة، تطفو وتحوم بيته وكان الجاذبية معدومة في محيط التمثال، كانت تتلا مس فتصدر أنفاماً رائعة؛ ضحكت ملائكة عندما لاحظت فكي السفلي يتدلّى من الدهشة وقالت:

"هاء.. عجيبة؟"

"مِين دا؟"

"دوببي أقول لك مملكة حسام وتسألني مِين دا؟ حيطلع  
مِين يعني؟ أمي مثلاً؟ رَكْز مصبوط؟"

دققت في ملامح التمثال، فعلأً هذا وجهي أنا؟ أو بالأحرى الوجه الذي اكتشفته وتأملته في المرأة قبل أن آتي إلى هنا لا لا غير معقول!

"ما قلت لي إيش رأيك في ذوقى؟"

نظرت إليها ببلادة محاولاً استيعاب الصدمات المتتالية..

"حسام إشبك بلمت؟ عجيبة تصميمى وللا لا؟"

هناك

"إنتِ اللي صممتِ دا؟"

"أنا اللي صممت هذى المدينة كلها!"

سحبتني من يدي وأنا في غيبوبة يقطة وانطلقنا في تلك الساحة الدائرية التي يتوسطها التمثال، قطرها لا يقل عن ثلاثة متر، توزعت في محيطها العشرات من الغرف الزجاجية التي تشبه المصاعد ولكنها أكبر بكثير وتطلق للأعلى بسرعة في مسارات تحنى مع انحاء المبنى، توجهنا إلى إحداها، كان الجميع يرحبون بي بحفاوة وكأنهم يعرفونني جيداً، في الواقع تجاوزت حفاوتهم أسفف التقدير والااحترام، كانوا كأنهم يعملون في خدمتي. دخلنا المصعد، تتوسطه أريكة جلدية دائرة بيضاء، أغلق الباب وقالت ملاك:

"خمسة أربعة إشين"

جلست على الأريكة وسحبتني لأقعد بجوارها بينما انطلق بنا ذلك المكوك للأعلى، في ثوانٍ بسيطة رأيت رأس التمثال.. رأسي العملاق.. يمر أمامنا ونحن نتجاوزه..

"حسين نفسى زي الأطرش في الرزقة!"

إبراهيم عباس

ضحكـت وهي تقول:

"تعجبـني أمـثالـكم.. المـوضـوع أبـسـطـ مما تـتخـيلـ، بـسـ  
عـنـدـنـا اـجـتمـاعـ تـمـهـيـديـ معـ العـقـولـ المـدـبـرـةـ لـلـتجـرـيـةـ الـليـ  
رـحـ تكونـ إـنـتـ بـطـلـهـاـ"

قفـزـتـ منـ مـكـانـيـ صـارـخـاـ:

"يعـنـيـ حـكـاـيـةـ التـجـرـيـةـ السـرـيـةـ طـلـعـتـ حـقـيقـيـةـاـ! إـنـتـ  
بـتـشـتـغـلـيـ لـحـسـابـ مـيـنـ بـالـضـبـطـ؟ هـاهـهـاـ"

ضـحـكـتـ وـاسـتـأـقـتـ عـلـىـ ظـهـرـهـاـ:

"يـخـربـ عـقـلـكـ يـاـ حـسـامـ، إـنـتـ مـنـ جـدـ تـحـفـةـاـ عـقـدـ  
عـالـمـكـ هـذـيـ قـسـامـهـاـ هـنـاـ! أـنـاـ قـعـدـتـ سـفـينـ أـخـطـطـ  
لـهـذـيـ التـجـرـيـةـ وـأـجـهـزـهـاـ"

"عـشـانـ إـيـشـ؟"

"عـشـانـكـ إـنـتـ؟"

"بـتـوـضـحـيـ لـيـ الـحـكـاـيـةـ؟ ولـلـاـ بـتـسيـبـيـنـيـ عـلـىـ عـمـاـيـ زـيـ  
عـادـتـكـ؟"

هناك

"الحكاية ببساطة إني يا عرّفكاليوم على مجموعة من  
النوابع، رح تقضي فترة مع كل واحد فيهم عشان ينعش  
ذاكرتك ويشحن عقلك الباطن بخبرات ومعلومات  
بتقديرك سواءً عشت معاي هنا أو .."

أشاحت بوجهها وهي تقول:

"أو رجعت لأهلك .."

"أنا فعلاً كنت أفكر كيف باستفید من وجودي هنا  
وأتعلم كل شي أقدر أتعلمها"

"أساساً حتى لو إنت ما ذكرت بهندي الطريقة أنا لازم  
أسيوي كل شي أقدر عليه عشانك"

قالتها عندما توقف المصعد وفتح الباب فاكتشفت بصعوبة أن  
هناك ممراً زجاجياً شفافاً يصل لباب معدني، تقدمت ملاك  
بثقة على الممر الخفي، فتبعتها وألقيت نظرة خاطفة على مشهد  
الساحة المرعب تحت أقدامي، التمثال العملاق تحول لقرمز بالكاد  
يرى من هذه المسافة والبشر حوله مجرد نقاط متحركة، نحن  
الآن على ارتفاع خمسة أمتار وأربعين طابقاً عن سطح  
الأرض!

إبراهيم عباس

اشتعل حماسي لمقابلة أولئك النوعية، يا ترى من يكونون؟ انتهى المسر ببوابة معدنية ضخمة، انزلقت للأعلى فرأيت السماء! غرفة أخرى كристالية معلقة، يجلس فيها خمسة رجال لا يمت أي منهم للأخر بأي صلة؛ كل منهم بشكل وعمر وجنس وهندام مختلف عن الآخر تماماً.

كانوا يضعون سماعات صغيرة في آذانهم تصدر وميضاً خافتًا متقطعاً، ناولتني ملوك واحدة تشبهها هو ضعتها في أذني؛ كانوا يجلسون على كراسٍ مرصوصة على شكل نصف دائرة أمام كرسيين آخرين مخصصين لنا أنا وملوك.

هب الجميع فوراً فتح الباب وتقدم كل منهم ليسلم علي بشاشة أخجلتني بالذات مع هيبتهم ووقارهم، جلس كل منهم في مكانه وافتتحت ملوك الاجتماع بعبارات ترحيب كروتها بخمس لغات مختلفة: إنجليزية وألمانية وإيطالية وصينية ووبانية، ثم عقبت بالعربية:

أشكر لكم حضوركم أيها السادة، سأواصل حديثي باللغة العربية وسيعمل المترجم الفوري على ترجمة كل ما يقال هنا باللغة المناسبة لكل منكم؛ أقدم لكم حساماً، طبعاً غني عن التعريف.."

هناك

نطق أحدهم، إفريقي عجوز، باللغة الإنجليزية ولكن كل ما قاله  
صحيح باللغة العربية عبر السمعة الصغيرة المثبتة في ذمي:

”لا تسعننا السعادة والضخر بمقابلتك سيد حسام، هذه  
بالفعل لحظة تاريخية في حياة كل منا“

هز الباقون رؤوسهم موافقين وهمهموا بلغاتهم التي استطاع  
المترجم الدقيق في ذمي أن يلقطها ويعيلها إلى العربية:  
استمرت ملوك في تقديمهم بأدلة بالعجز الإفريقي الذي يرتدى  
بدلة أنيقة جداً:

”شكراً جزيلاً سيد نوكاس، والشكر موصول للجميع:  
السيد ليو، والسيد لودفيغ، والسيد غينزو، والسيد  
بروس..“

حاولت أن أعبر عن امتناني، فتطافت وقلت بالفصحي:

”شكراً لكم جميعاً، وجودي بينكم اليوم شرف كبير  
لي“

وأصلت ملوك حديثها:

ابراهيم عباس

كل منكم اطلع على ملف حياة السيد حسام، مع الأهداف التي نرجوا تحقيقها في فترة قياسية..

تدخل السيد غينزو، تحدث بلغة آسيوية لا تتوافق ملامحه الأوروبيّة وشبيه العريض:

اطلّعنا على جميع التفاصيل، ولكن يا سيدتي الفترة الزمنية قصيرة جداً، يستحيل أن يتقن جميع المهارات في هذه المدة! هذا مستحيل!

صدقني يا سيد غينزو ستغير رأيك عندما تتعامل مع حسام مباشرة، أيها السادة أنا مقدرة تماماً للتحدي الزمني الذي نواجهه، ولكننا لا نستطيع أن نضمن تواجد السيد حسام معنا لفترة طويلة..

ظهرت على وجهها علامات الحزن والتأثر وهي تواصل:

لو كان لدينا متسع من الوقت لكان معنا في هذه الغرفة العشرات من العباقرة المتخصصين في شتى المجالات لتدريب حسام، ولكنني اخترتكم أنتم بالذات، انتم الأهم بالنسبة لحسام، وأنا واثقة من انكم لن تخيبوا ظني وظنه!

هناك

تدخل السيد ليو الذي يبدو من هيئته وملابساته أنه سقط هنا من  
القرون الوسطى، وقال وهو يداعب لحيته:

”ولكن هناك شئ لا أستطيع استيعابه، حتى وإن عاد  
السيد حسام، فهو يمتلك جميع الوسائل التي تمكنه من  
تعلم اي شئ في اي وقت!.. المعلومة التي كنا نفتتح  
جزءاً من اعمارنا للوصول إليها - إن حالفنا الحظ-  
يستطيع هو أن يحصل عليها بنقرة“

التقت إلى واصل بلياقة وبلغته الإيطالية العتيقة:

”لا تنس فهمي سيد حسام، فنحن وكما قال السيد  
لوكاس، فخورون وسعداء جداً باختيار الآنسة ملاك لنا  
كي نتولى مهمة تدريسك، ولكنك لا تحتاجنا مع الثورة  
المعلوماتية التي تعيشونها“

تدخل السيد لودفيغ الذي بدا أقلهم حماساً وبعصبية زادتها لغته  
الألمانية جفافاً:

”الموهبة أهم من المعلومة بكثير أيها السادة! مع تقديري  
لحماس السيد حسام فحتى لو نجح في تشرب جميع  
المعلومات فهو يضيع وقته إن لم يكن يمتلك الموهبة  
الفنية التي تؤهله لتحويل تلك المعلومات إلى مهارات“

ابراهيم عباس

عقب السيد بروس الذي غطّى جزءاً من ملامحه خلف نظارة  
معتمدة وقال بلفته الصينية:

“أتفق معك تماماً سيد لودفيغ! نحن نستطيع أن نوفر  
المعلومة والخبرة للسيد حسام، ولكننا لا نستطيع أبداً  
أن نتحكم في سقف مواهبه، ناهيك عن قدراته  
الجسمانية!”

كنت الأحمق الوحيد في ذلك الاجتماع! لم أستوعب شيئاً على  
الإطلاق بالرغم من قدراتي العقلية الفائقة، ولكنني مع ذلك  
تدخلت لأضع حداً للجدل:

“أقدر تخوفكم، ولكن كل ما ذكرتموه يزيد من إصراري  
على خوض هذه التجربة! سأفعل ما بوسعني.. هذا كل  
ما أستطيع قوله”

بدت علامات الموافقة والرضى على الحضور، وابتسمت لي  
ملالك قبل أن تختتم الاجتماع:

“تمت جدولة البرنامج، سأهتم أنا بتوصيل حسام إلى  
كل منكم في الموعد المحدد،أشكركم مرة أخرى على  
الحضور..”

هناك

وَدْعُونِي بِحَفَاوَةٍ كَمَا اسْتَقْبَلُونِي .. وَخَرَجْتُ بِبِلاهَةٍ كَمَا دَخَلْتُ:

"مُمْكِنٌ لَوْ سَمِحْتَ تَفهّمِي مِنْ دُولَ؟"

"مَعْقُولٌ مَا قَدِرْتَ تَفْتَكِرْ أَيْ وَاحِدٍ فِيهِمْ؟"

"لِيَهُ دُولٌ كَانُوا مِنْ قَرَابِيِّ؟"

"وَلَا عُمْرُكَ قَابِلُهُمْ، لَكُنْكَ تَعْرِفُهُمْ كَوْسِ، دُولٌ يَا حَسَامٌ  
الَّتِي رَحْ يَعْلَمُوكَ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ نَفْسَكَ تَتَعَلَّمُهُ وَتَعْمَلُهُ فِي  
حَيَاةِكَ وَحِيفَكُروكَ بِكُلِّ شَيْءٍ كَنْتَ تَحْبِهِ؟"

كَانَ الْمَصْدَعُ بِانتِظَارِنَا، دَخَلْنَا فَهْتَفْتَ مَلَاكُ:

"وَاحِدٌ صَفَرٌ صَفَرٌ صَفَرٌ .."

"يَا إِلَهِي! أَلْفُ دُورٍ ٩٩"

"هَذَا الرُّووفُ .. دُورُ الْمَدِينَةِ الْمَعْلَقَةِ؟"

"طَبْ بِتَطْلُعِي سَابِعُ سَمَاءٍ لِيَهُ؟"

"فِيهِ وَاحِدٌ نَفْسَهُ يَقَابِلُكَ؟"

"ثَانِي؟"

ابراهيم عباس

"مليش ضروري يمشوفك؛ لا تخاف ما حنتأخر عشان  
ورانا شغل كثير" (١)

شفل زی ایسی

”زي إنك لازم تتعلم اللغة الألمانية قبل ما تروح للسيد  
لودفيغ بكره..“

"طبع ما نمسىها بالاختراع الى يترجم الكلام" ١٦

”الترجمة ما تفع، لازم تتقن اللغة عشان تعلم بكل التفاصيل والأحساس“

يا آنسة يا محترمة أنا عشت عقد ونصف من الزمن  
أتعلم اللغة الإنجليزية والنتيجة كانت درجات مهلهلة  
وأساتذة محظيين! تغيني أتعلم المانى في جلسة١٩

"نسيت لما انكلعت مع الجرسون بالإنجليزي؟" It was perfect.

**طب إذا فجأة صرت أعرف أنكِلم** "ليش ما صرت أتكلّم بقية اللغات؟"

هناك

"لأنها ما اتسجلت في روحك!"

"تقصدي عقلي الباطن؟"

"كفاية رغبي، وصلنا!"

اخترقت كبسولة المصعد فجوجة في قاعدة تلك المدينة، وبرزت على سطحها، إنها فعلاً مدينة متكاملة: ناس وبيوت ومقاهي وشاطئ، فتح باب المصعد فتقدم إلى رجل من الواضح أنه كان ينتظرنا بهفة، أمسكتي من كتفي يتأملي، اخترقتي عيناه وهو يقول:

"حسام.. ماني مصدق إني لقيتك!"

سمعت ملاك من خلفي يقول:

"هذا الأستاذ خالد يا حسام، من زمان نفسه يقابلك"

لم أستوعب الموقف أبداً، أشعر أنني في زفة لا متناهية، وأنا الأطرش الوحيد فيها! الأطرش والأعرج والأحول!.. لا أفقه شيئاً مما يجري..!

ابراهيم عباس

أخذنا الأستاذ خالد إلى مطاولة مطلة على منظر رائع، نحن في وسط السماء، والبحر قرر أن يقصد معنا؛ كانت تجلس على أحد المقاعد سيدة لاحظت توتر ملاك وارتباكتها عندما رأتها، وقفت السيدة فوراً عندما رأته، لم تطرق بكلمة، بل نظرت إلى نظرة حملت كل حنان الدنيا وحزنها، انهمرت دموعها واحتضنتي وانهارت في نحيبها إلى أن أخذنا الأستاذ خالد من كتفها وأجلسها، وجلسنا جميعاً.

لأول مرة أرى ملاك بكل هذا التوتر والارتباك، حاول السيد خالد أن يلطف الأجواء:

"عاجز عن شكرك يا ملاك، بصراحة ما كنت أحلم إني أقابل حسام بهذه السرعة"

ردت عليه بمرح مصطنع:

"أهه صار بيننا يا أستاذ خالد، وتقدير تشووفه وقت ما تحبـا"

نظر بطرف عينه إلى السيدة التي بجواره وهو يقول ملاك:

"ولكن يا ملاك زي ما انتِ شايفة الأوضاع تغيرت..."

هناك

"تفيرت ١٦ إش تقصد ١٦"

"حسام ضروري يرجع لأهله، مالهم غيره، وللا إيه يا  
حسام؟"

قالها الأستاذ خالد وقدم لي كأساً يحوي شراباً كريميةً تفوح منه رائحة الأناناس وجوز الهند تزيينه شريحة أناناس وكربة ومظلة صفيرة..

"فاكر السيناكولا دا اللي تحبها؟"

صُقِّلت ملأك عندما تناولت الكوب وقربيته من فمي، وعاودت تلك السيدة المبكاء ودفنت وجهها في كفها، هجمت على ملأك وانتزعت من يدي الكأس وألقته بعيداً فتهاشم على الأرض الكريستالية محدثاً ضجة عنيفة أجبرت الجميع على الالتفات نحوها؛ فصرخت فيها:

"ملأك؟ إنتِ انجنتي؟"

شاركتي الأستاذ خالد استكاري:

"ملأك! مو من حقلك تتخدي قرارات بنفسك!"

إبراهيم عباس

"يعني من حبك إنت تتدخل وتحتاج القرارات؟"

"إنت عارفة إيش يعني لنا حسام؟"

"حسام الآن يعني لي أكثر مما يعني لكم؟"

يا ترى من هذا الشخص؟ وماذا يقصد؟ وبأي حق يتفاوض  
الإثنان في القرارات التي تخصني أنا؟ لا بد وأنه يعرف الكثير  
عني.. لن أتركه حتى أعرف منه كل شئ! سواء كنت في حلم أو  
خيالية أو عالم افتراضي لا بد أن أتدخل الآن لاضع حداً لكل  
هذا !!

"أستاذ خالد، أرجوك قول لي إش تعرف عنِّي؟ أنا

"أعرفك؟ قابلتك قبل كذا!"

ارتبك الأستاذ خالد جداً وأشاح بوجهه متهرباً من سؤالي..  
فقالت له ملاك بنبرة متحدة:

"تفضل جاوب يا أستاذ خالد أو تحب أجاويه أنا؟.."

واضح إنه حسام مصر يعرف كل التفاصيل الآن!

هناك

أخيراً نطقـت السيدة الجالـسة بـجوار الأستاذ خـالد.. أو بالـأحـرى  
صرـخت مـترجمـة مـلاـكـ:

"لا لا أرجوك يا بنتي لا تقولـي له.. أرجوك"

وقفـت مـلاـكـ بـحـزـمـ وـبـرـودـ، وـسـحبـتـيـ منـ يـديـ:

"أـسـتـاذـ خـالـدـ، الـمـقـابـلـةـ اـنـتـهـتـ، طـلـبـتـ إـنـكـ تـشـوـفـ حـسـامـ  
ونـفـذـتـ طـلـبـكـ"

لمـتـنـظـرـ حـتـىـ سـمـاعـ رـدـ الأـسـتـاذـ خـالـدـ، الـذـيـ لـمـ يـفـعـلـ شـيـئـاـ سـوـيـ  
احـتضـانـ السـيـدةـ المـنـهـارـةـ بـجـوارـهـ..

نزـلـنـاـ فـيـ المـصـدـدـ كـدـتـ أـنـ أـحـولـ حـيـرـتـيـ المـتـفـاقـمـةـ وـغـضـبـيـ إـلـىـ  
ثـورـةـ فـيـ وـجـهـ مـلاـكـ، وـلـكـنـهاـ أـخـرـسـتـيـ قـبـلـ أـنـ أـنـطـقـ..

قـالـتـ بـهـدوـءـ دـوـنـ أـنـ تـرـفـعـ عـيـنـيـهـاـ إـلـىـ:

"حسـامـ.. الـيـنـاـكـولاـداـ كـانـ مـسـمـوـاـ"

ابراهيم عباس

منابع

(6)

دماغي يسابقني

إبراهيم عباس

هُنَاك

هناك شئ عجيب لم أنتبه له منذ أن وجدت نفسي هنا، لا توجد معالم لملوقة! متأكد أنني أمضيت الساعات، وربما الأيام وأنا محبوس هنا، ولكنني لم الألاحظ أي شئ يدل على تزحزح الوقت من محله، نظرت إلى الياخت ماستر في معرضي، إنها لا تتحرك! لا اثر للشمس في السماء، ولكنها مضيئة بضوء ناعم يشبه الضوء الذي يتخلل الفيوم. لم أر ليلاً حالكاً هنا، أحياناً تخفت إضاءة السماء وتكتوها حالة قرمذية ولكن سرعان ما تعود وتتوهج! بدأت أتيقن أن كل هذا ليس إلا مدينة اصطناعية، فمع وجود جميع هذه التقنية لا أستبعد أن تكون السماء عبارة عن قبة كريستالية عملاقة يتم التحكم بها وبإضاءتها بواسطة جهة خارجية! الجهة التي أنت منها ملوك على الأرجح، أو الجهة التي أنت منها خالد؟ قد تكون نفس الجهة في النهاية! ملوك وخالد يعرفان الكثير عني، وخالد مهمتم بعودتي العالمي، لا بد أن أصل إليك يا خالد، لا بد!

أعرف أنكم قد تسخرون من أفكارى الآن قد تتهمنى بالهلوسة والخيال، والسبب بسيط: أنتم لم تخوضوا هذه التجربة كي تحكموا! أنا محظوظ جداً، فبالرغم من كل هذا لا أزال أحافظ بقواي العقلية.. على ما أعتقد!

إبراهيم عباس

كانت الأفكار تعصف بمخي وتحن عائدون على اليخت، لم تعرف لي ملاك على الناي ولم أعزف لها على البيانو، فتوتر الوضع لم يسمح سوى بمعزوفة الصمت. وصلتُ لبرجِي، ملاك المفعولة لم تودعني بهرج كعادتها، انطلق اليخت بها لحظة نزوبي منه، طاردها بنظراتي أبحث عن ابتسامة، ولكنها نجحت في الفرار بوجهها ومشاهيرها وهي تبتعد.

صعدت إلى غرفتي فتحت الباب وتقاجأت بأن كل شيء قد عاد إلى محله بالضبط وتم ترتيب السرير والحمام وحتى القطعة التي أتلفتها في الكوفي شوب المصفر عادت كما كانت وتعبات ثلاثة بالمزيد من الشوكولاتات اللذيذة بدلاً من التي نسفتها، والأهم من ذلك كانت تنتظرني طاولة عليها أطباق مقطعة بقباب ذهبية، رفعتها فانطلقت بأبحرتها تدغدغ خدي العابية، باستثنائي بالكريمة والفطر عليها شرائح جبن البارميزان الرقيقة الطازجة وورقانات الريحان وحولها حبات الطماطم الكرزية وبجوار الأطباق وقفت قناني الخل والزيت وطحانته دلفل أسود خشبية كبيرة أنيقة، كم كنت أتمنى أن أمتلك إحدى هذه اللعب! أذكر أن القنينة الوحيدة التي كانت تزين مائتي هي شطة كريستال التي أدمى تناولها مع كل شيء تقريباً، وأن مجرد وجود أي قارورة بجوارها كان ضريراً من الرفاهية لا يتكرر كثيراً.

هناك

لقد كانت الطاولة معدة لشخصين، أعتقد أن ملاك كانت تتنوى تناول العشاء معه، ولكنها غادرت مع انفعالها، بصرامة لم يستطع ذوقي واتيكتي مقاومة هذا الإغراء، فالتهمت طبعي، وتنازلت عن ما تبقى لي من اتيكيت فقضيت على طبق ملاك أيضاً.

توجهت نحو الثلاجة وانتشرت قارورة كوكاكولا كلاسيكية ولكنها أكبر من القوارير المتممة التي أعرفها وأخذت عدداً من سبائك السنكرز العملاقة زلبت إحداها قبل أن أعتدل في جلستي على إيواني الوثیر. برزت الشاشة، ولكن القائمة اختلفت هذه المرة، فقد ظهرت أمامي أعلام أربعة بلدان ترفرف: ألمانيا، إيطاليا، الصين واليابان. لا بد وأن ملاك قد جهزت برنامجاً خاصاً لتعليم اللغات، سأبدأ باللغة الألمانية كما اتفقنا. أخرجت الدفتر والقلم لأدون ملاحظاتي واخترت العلم المقلم بالأسود والأحمر والأصفر، فجأة تلاشت الشاشة من أمامي، ارتفعت جميع الستائر وتحول زجاج الشرفة وسقف الغرفة إلى شاشة تضخ الصور الحية ثلاثية الأبعاد من حولي، ظهرت حسناء شقراء ضخمة هولوغرامية ترحب بي:

إبراهيم عباس

"سيد حسام، مرحباً بك في برنامج تعلم اللغة الألمانية.  
نرجو منك الاسترخاء والتأمل خلال الساعات القادمة"

كتبت القليل من الملاحظات في البداية ولكن المعلومات المتدايقه لم تمهلني لكتابتها، كانت العبارات تطفو أمامي باللغة الألمانية وأمامها جميع ترجماتها واستخداماتها باللغة العربية، كل عبارة تظهر يظهر معها مشهد واقعي لأشخاص يستخدمون العبارة، كل ذلك كان يتم بسرعة وبلا توقف، كانت المشاهد تحدث حولي وكان ايوني يدور تلقائياً يميناً ويساراً لمتابعة أحداث المشهد، والمدهش أن عقلي كان يلتقط كل شئ بسرعة وفهم، بعد فترة بدأت الترجمات العربية تتناقص إلى أن تلاشت وأصبح كل شئ يصاغ بالعبارات الألمانية، وبدأت تتجسد حولي بعض المشاهد الهامة في التراث الألماني، أمضيت ساعات على هذا الوضع، الدهشة أنسني نفسي، لدرجة أنتي تقاجأت عندما ظهرت نفس الفتاة الهولوغرامية مرة أخرى أمامي وقالت:

"سيد حسام أتمنى أن تكون قد استمتعت بجولتنا"

"بالطبع.. استمتعت جداً"

هناك

تقاجأت لأنني قلتها باللغة الألمانية وبكل طلاقة. تلاشت بعد ما  
ودعّتني:

"Schönen Tag"

"Schönen Tag!"

في تلك اللحظة باختي وأفزعوني صوت ملائكة:  
"حسام ممكن أدخل؟"

لم تنتظر إجابتي ولكنها افتحت الغرفة مباشرة و... اسمحوا لي  
أن أصف هندامها على عجلة هذه المرة: تخيلوا معي إحدى  
أميرات الممالك الأوروبية في العصور الوسطى خرجت من لوحة  
البورتريه وتجسدت في الواقع، مع فارق الجمالطبعاً، علقت  
القلادة التي أهديتها لها على رأسها فتدلت المسامة القلب المجنح  
على جبهتها، إن كانت تلك المناسبة قد ازدادت جمالاً على جيدها  
مرة، فقد تضاعف جمالها بين عينيها ألف مرة!

رفعت ثوبها المنقوش بيديها كي لا تتعر بطرفه وهي تهرون  
نحوى، ألقت نظرة على الأطباق الفارغة فقالت بحسنة بريئة:

ابراهيم عباس

"صحيتك أليست؟"

تمزقت خجلاً وحاولت أن أبرر صفاتي ولكنها سبقتني:  
"بالعافية حبيبي.. أصلًا ماني جيغانته.."

حاولت ترقيع الموقف، فانطلقت نحو الشوكولاتة وقدمت لها  
باونتي، تناولته مني كي لا تحرجني، تباهيت أمامها فقلت بلغة  
الألمانية فصيحة:

"بالهناء والعافية سيدتي"

فأجابتي هي باللغة الألمانية أيضًا قائلة:  
"نسينت أن أخبرك أنك ستتعلم الإيطالية أيضًا.."

استمر حوارنا باللغة الألمانية بلهجتها برلينية قمة:  
"بسقطة، سأتعلمها غداً في ساعات قليلة..!"

"يجب أن تتعلمها الآن! في دقائق قليلة..! لقد غيرت  
الخطة قليلاً، ستقابل السيد ليو اليوم.."

"ولكن لماذا؟"

هناك

اجتمعت بالسيد ليو وأطلعني على ما ينوي تعليمك  
إيام، من المهم جداً أن تقابله قبل الآخرين"

فاجأتني وقفزت على إيواني! حسنٌ سأسمح لها هذه المرة  
بالسيطرة على إيوان الحسام.. هذه المرة فقط! للمرة أطراف  
ثيبها الذي غمر الإيوان بأكمله ودعنتي لأجلس بجوارها. غصت  
بين الإيوان والفسستان وبدأت هي في التحكم بالبرامج، اختلست  
نظرة جانبية مصرية إلى وجهها الذي اكتسح الجدية الجميلة  
فهمست:

"على فكرة الأنماسة صارت أحلى بين عيونك"

ردت علي كطفلة جذل بدميتها الجديدة:

"من جداً! حجبتك يا حسام؟ خلاص رح ألبسها كذا  
دايمًا عشانك"

"لو أدربي كان جبت لك كل المجوهرات اللي في المول"

تهربت من خجلها بتبريراتها:

"أنا لبسنها كذا اليوم لسببين: أولًا عشان تمشي مع  
ستايل الملابس وأذواق السيدات في القرن الخامس  
عشر"

إبراهيم عباس

نظرت إليها بابتسامة هائمة وأنا أقول:

"وثانية؟"

"ثانيةً وهو الأهم، هنا بتبان بشكل أوضح، أبغى أتباهى  
قدم كل الناس بهدية حبيبى!.. فهمت؟ يلا خلينا نكمل  
شغفنا!"

اختارت العلم الإيطالي على الفراغ ثلاثي الأبعاد، فظهرت حسناء  
هولوغرامية أخرى امتنزج في ملامحها الجمال العربي مع الجمال  
الأوروبي فاندهشت:

"واو كل بلد لها بنت مختلفة!.."

لكرزني في عظم ضلوعي بكوعها لكرزة مؤلمة لا تتاسب أبداً مع  
رقتها وجمالها وقالت بلهجة حانقة:

"ممنوع تركّز في البنات!.. مفهوم؟"

"غيرانية من صورة هولوغرامية وهمية؟"

"أنا أغار عليك من أي شئ ينتهي بناء مريوطلة!"

هناك

نعمدت استفزازها وأنا أقول:

"طب ألف مقصورة ينفع؟"

كانت ضريبة استظرافية هذه المرة لكتلة أقوى من التي قبلها، سمعت صوت فرقعة كوعها في ضلعي هذه المرة وأجبرني الألم أن أحترم نفسي وأخرين وأنا أراقبها وهي تتنقل بين الخيارات بمهارة وسرعة؛ كانت تختصر الفقرات التفصيلية وتركز على الأهم، كما ندور سوياً مع حركة الإيوان التلقائية وكانتا في مدينة ملاهي، وبكل صراحة وصدق لم أكن مرکزاً في المعلومات التي أتفاها قدر تركيزي في ملامحها التي تزداد جمالاً حتى وهي في قمة الجدية! بعد دقائق أصبحت جهذاً في اللغة الإيطالية أيضاً..

"خلاص كدا كفاية لازم نتحرك بسرعة عشان لا نتأخر

على السيد ليو"

"طب يحتاج أغير ملابسي؟ تتوقيفي الباقي بدلة لويس الخامس عشر في غرفة الملابس عشان تتماش مع ستايل الفستان اللي إنت لابساه؟"

إبراهيم عباس

بدأت ترطن بلهجة إيطالية سريعة:

”وما دخل لويس في إيطاليا؟ يجب أن ترتدي أجمل زي  
ميلاني“

فعلاً كانت الأزياء التاريخية تتظرني داخل غرفة الملابس،  
اضطررت للاستعانة بمساعدة ملوك لا رداء الحلة المكونة من  
سبع قطع مزركشة غير القبعة ذات الريشة والحرملة! لله درك يا  
جينزي وقميصي!

خادرنا المبني أنا وملوك، وكأننا خرجنا من طيات إحدى الكتب  
الأسطورية أو لقطات أحد الأفلام التاريخية. كانت تتضررنا عربة  
فخمة بنقوش مذهبة تجرها أربعة خيول، ساعدت الدوقة ملوك  
على صعودها وصعدت بعدها، وانطلقتنا. ابتعدنا عن المجرى  
المائي وانطلقت بنا الخيول بسرعة داخل الحقول الخضراء،  
كانت المناظر رائعة بحق!

حضررة الأرض وزرقة السماء يتعانقان لينجبا الأفق، لا يعكر  
صفوهما سوى بعض الأكواخ المتاثرة هنا وهناك، التي لا تتماشي  
هي ولا سكانها الذين يعيشون حياة ريفية بسيطة مع التكنولوجيا  
الثورية في هذا المكان!

هناك

برزت أمامنا هضبة شاهقة استقرت عليها قلعة تشبه القلاع التي رأيتها في أفلام أميرات ديزني، كانت تلك القلعة وجهتنا، عبرت عريتنا بوابة القلعة واستقرت وسط حديقتها فنزلنا، ما أجمل هذه الحديقة، تساقطت نباتاتها على جدران القلعة وأبراجها وزينتها بأزهارها. وقفنا أمام باب البرج فطرق ملوك الباب وقالت بالإيطالية:

"سيد ليو هل أنت هنا؟"

لم يحبنا سوى عزف قيثارة آسرا، فدفعت ملوك الباب بيده، ساحة كبيرة جداً، عبارة عن استوديو لجميع التخصصات، منحوتات متذكرة، لوحات زيتية بمختلف الأحجام، مجسمات ورسوم ميكانيكية وهندسية وفي منتصف ذلك كله يجلس ليو الذي لم أر وجهه بسبب اللوحة التي تغطيه بينما انهمك في رسماها، وبجواره عازفة قيثارة الهاور تضرب بأناملها على أوتارها بمهارة ونعومة، همست لي ملوك:

"أرجع لك بعد ما تخلص؟"

"تعالي هنا رايحه هين؟ حتسبيبني معاه لوحدي؟"

"لا تخاف ما حياكلك! المهم تتعلم منه كل شي!"

إبراهيم عباس

ذهبت ملائكة، رددتُّ الباب ببطءٍ كي لا أفسد تركيز السيد ليو،  
ولكن الجدران ردّدت صدى احتكاك مفاصل الباب الخشبي.. تبأ  
له! اقتربت منهما، وجدت كرسياً صغيراً فجلست عليه، وطفت  
عييني في أرجاء المكان، أتأمل كل التفاصيل، بدأ مخفي محاولات  
التذكر والربط، ولكنني متأكد أنني لم أر ليو هذا قبل أن تعرفني  
عليه ملاك في الاجتماع! رجل وسيم لا يفصح سنه سوى  
الشعرات الفضية التي غزت رأسه ولحيته الأنثقة. بقيت على  
هذا الوضع لفترة، حتى خيل إلى أن الرجل لم ينتبه حتى  
لوجودي من شدة انهماكه في لوحته، كانت الفتاة تعزف بوتيرة  
تماشي مع مزاج السيد ليو فتسارع وتتباطأً وتتسابق بنعومة ثم  
تشتد كلما ازداد تركيزه، تسمرت عينا الفتاة على ملامح السيد  
ليو أثناء مداعبتها لأوتار قيثارة الهاورب العملاقة وكأنها تعزف  
على أعصابه، تململت من جلستي، فوقفت وبذلت أتجول في  
المكان، اقتربت من السيد ليو بهدوء حذر والتفت حوله لأختلس  
النظرات إلى اللوحة التي يرسمها..

يا إلهي! تذكرتها! هذه الموناليزا! ولكنها تختلف عن الموناليزا  
التي نعرفها، أوضح وأنصع، مفعمة بحياة وتفاصيل أكثر بكثير!  
لم أتأملك نفسك فهتفت:

"دافيتشي!"

هُنَاكْ

توقف السيد ليو عن الرسم، وتوقفت الفتاة عن العزف، والتفت  
إلي بيضاء وكأنني افترضت جريمة نكرا:

"اسمي ليوناردو"

"نعم يا سيدي عرفتك! ليوناردو دا فينشي!"

"أفضل أن تناديني ليوناردو، دا فينشي ليس اسم، وإنما  
لقب أطلقوه علي عندما رفض أبي أن ينسبني لعائلته!  
فتسبيوني لقرية فينشي كما ينسبون للقطاء..."

"المعدرة سيد ليوناردو، لم أكن أعلم، ولكن المهم أنني  
تذكريك! تذكرت لوحة الموناليزا!"

"ما زلت تصرّون على أنها الجيوكاندا ليزا!"

همهم بها بيشه وبين نفسه وهو يضيف بعض اللمسات على  
عينيها.. وواصل همسه وهو في قمة التركيز:

"ومالذي يهم إن كانت الجيوكاندا ليزا غيرناندي أو  
إيزابيللا دي أراغون أو سيسيليا غاليراني أو  
كوسستانزا دي أفالوس.. أو حتى رسامة بورترية لي أنا  
شخصياً؟ من يأبه بحفلة من الأستعراضيات البائسات؟  
اللوحة أهم مني ومنهن! نحن نذوي.. نتلاشى ونسس،  
وتبقى أعمالنا!"

إبراهيم عباس

وضع السيد ليو الريشة جانباً وتأمل لوحته للحظات قبل أن يقف  
هBADRIT بسؤاله:

"هل انتهيت منها؟"

"أنتهيت من إضافة بعض التفاصيل، فالإبداع رحلة تبدأ  
ولا تنتهي."

"لكن لا بد أن تنتهي اللوحة يوماً.."

"الإبداع لا ينتهي إلا بالوفاة! أنا لم أنته من أي عمل  
بدأته في حياتي قط، فقط استمر في التطوير وإضافة  
اللمسات، من البلاهة الاعتقاد بأن الكمال متاح.. ليس  
في هذه الحياة على الأقل!"

"سيد ليوناردو، أنا في قمة الغبطة والسعادة لأنني  
حصلت على هذا الشرف.. شرف تعلم الفن من أعظم  
رسام عرفته الأرض؟"

أظن أنني تفوهت بحماقة أخرى جعلت عينيه تتسعان:

هناك

فن؟ رسم؟ هل جئت هنا لتعلم الرسم؟ لأنك تعتبرني مجرد رسام؟ يمكنك الاطلاع على كتب ودورات تعلم الرسم لتصبح رساماً ماهراً إن كان هذا طموحك!

فأجاني بعبارته فارتبتقت وأنا أقول:  
"آآآ.. جئت لأتعلم كل شيء!"

"كل شيء؟ إن بحثت عن كل شيء لا تحصل على أي شيء!"

تبعه وهو يعبر أحد أبواب البرج متوجهًا نحو الحديقة، وواصل:  
"لا بد أن تعرف تماماً ما تبحث عنه!"

قالها وأشار إلى بعض حمامات تجمعت تحت ظل إحدى الأشجار:  
"هل تستطيع أن تصطاد جميع هذه الحمامات؟"

"لا! يجب أن أركز جيداً، أركز على الحمام التي أريدها  
لأصطادها!"

ابراهيم عباس

قلتها ونشوة الطالب النجيب تتدفق في عروقي واقتربت من الحمام بحذر وأنا أسلط تركيزي على التي بدت أكثرهن كمسلاً، وانقضضت بسرعة وقوة ومهارة عليها، ولكن كل ذلك لم يشفع لي، فقد طار الحمام وأصطدمت بالشجرة، أكاد أسمع فهقفات الحمامات الشامنة مع تصفيق جناحاهن. أعتقد أن السيد ليوناردو قد ندم! التفت إليه فوجدهه منهمكاً بالرسم على ورقة..

وأدأر الورقة ناحيتي وقال:

"أنظراً هذا الذي أريدك أن تتعلمها!"

"الرسم؟ ألم تقل لي أنتي أستطيع تعلمه من الدورات؟"

"حسام ركزاً لقد اصطدت أنا جميع الحمامات!"

نظرت إلى الرسمة التي رسمها، لقد كانت تحفة فنية بالرغم من أنه رسمها في لحظات باستخدام قلم الفحم فقط! رسم الموقف الذي حصل بكل دقة، الحمامات وهي تطير، حركة كل حمامة، كل جناح، كل ريشة، وكأنها صورة فوتografية مطبوعة بالحبر الأسود.

"ما أريدك أن تتعلمها يا حسام هو الإبداع! هو الاستفادة من أكبر نعمة أنعم الله بها عليك: دماغك!"

هناك

وأصل وهو يتجلو في مزرعته وأنا أتبعه، أخرجت دفتري وقلمي  
لأدoun الدرر التي يملئها علي، تقدم إلينا أحد الخيول التي كانت  
تسرح في المزرعة ووقف بجوار السيد ليوناردو وأطرق بإجلال  
كأنه يربح بقدومنا. خيلٌ أدهم يلمع سواده وكأنه سيكة من  
معدن براق يزداد بريقه مع منعطفات عضلاته المفصلة، ربّت  
السيد ليوناردو على رقبته باحترام لا يليق إلا بصديق حميم  
قديم وهو يقول:

"سيد حسام، اسمح لي أن أقدم لك السيد شيرقيالو  
أعز أصدقائي"

تعجبت من اسم الخيل الذي يعني "دماغ" بالإيطالية ولكنني  
أحببت أن أتبااهي بثقافتني عن أعمال ليوناردو قليلاً:

"إذاً السيد شيرقيالو هو الخيل المحظوظ الذي نال  
شرف الظهور في الكثير من أعمالك!"

"تعبرونه مجرد خيل ولم يفهم أحد أنني كنت أعتبر عن  
دماغي! الدماغ يا حسام كالخيل، يمكنك أن تتطلق به  
وتتسابق السريع، ويمكنك أن تربطه ليجر المحراث!  
والخيار لك!"

ابراهيم عباس

حاولت أن أجاريه في فلسفته:

"وأكثر الناس يريطون خيولهم في المحاريث للأسف...!"

"أكثر الناس يذبحون خيولهم؟"

"إذاً كيف أصبح مبدعاً؟"

"أطلق لخيلك العنان؟"

"لينطلق بسرعة الريح؟"

"لا!"

"هاد؟"

"ليس بيق الريح، ويسبق البرق، ويطير في السماء؟"

"فهمت! لا بد أن أنطلق بعقلي خارج الصندوق!"

"لا! خارج الصندوق صندوق آخر أكبر! لا بد أن تنتقل  
بين الصناديق المختلفة عندما تحتاجها، وتتخلص منها  
جميعها عندما تعيشك! هذه هي الخطوة الأولى..  
والأهم"

هناك

كنت منهمكاً بتدوين كل ما يقوله ..

"وما هي الخطوة الثانية؟"

تناول دفترى من يدي وأشار إليه وهو يقول:

"هذا! الأفكار في دماغك مثل الحمامات التي طارت

عندما حاولت الإمساك بها، الطريقة الوحيدة للإمساك

بأفكارك هو توثيقها قبل أن تفر منك ويفيض عليها

صياد آخر".

ناولني دفترى فأسرعت بكتابية ما قاله ورسم حمامات صنيرة

طائرة كي لا أنسى الموقف أبداً. أطلعني على رسوماته وكتاباته

وأفكاره، هذا الرجل بالفعل لا يتوقف عن التفكير وتدوين أفكاره،

كانت أفكاره تتجاوز عصره بعصور.. باختصار لأنه لم يكتب حركة

مخه الجامحة انبهرت جداً بأعماله:

"سيد ليوناردو هذه الاختراعات التي وضفت رسوماتها

رأيت النور بعدك بقرون".

"أعلم للأسف! تأخر الناس في تنفيذها لأنهم انشغلوا

باتهامي بالجنة بدلاً من تطوير أفكاري".

إبراهيم عباس

“أعتقد أنك قد عانيت منهم كثيراً”

“بالعكس تماماً، لا بد أن تشعر بالنشوة والفخر عندما  
يتهكم الحمقى بالجنون! لأنهم لن يتوقفوا إلا إذا  
أصبحت أحمقأً منهم”

“سيد ليوناردو هل هناك خطوات أخرى هامة لنمو  
الإبداع؟”

“أشكرك!”

“هادئ”

“أشكرك على احترامك للابداع و اختيارك الكلمة -نمو-  
فعلاً الإبداع كائن حي يعيش في أعماق وجودتك، يولد  
بالشغف وينمو بالعمل المتواصل”

باغتني وأنا أدون ملاحظاتي كطالب يستعد للامتحانات النهائية  
بسؤال قاتل:

“قرأت كل شئ عنك يا حسام، أنت تظن أن لديك شغف  
بالمعديد من المجالات أليس كذلك؟”

هناك

أومأت برأسِي وأنا أتمنى أن لا يحرجني بالخوض في تفاصيل  
حياتي المفعمة بالكسيل والفشل، ولكنه فعل:

“مع ذلك لم تتفنن إلا في لعب البلوت والبلايستيشن!  
هناك فرق شاسع بين من يعيش الفن ويجتمع أثمن  
اللوحات وبين من يحيا ليرسمها وإن مات من الجوع،  
شتان ما بين من يعيش الموسيقى أو الرياضة أو الأفلام  
ومن يؤلف المعزوفات ويحقق البطولات ويحصل على  
الأوسكار!”

ـ سيد ليوناردو، أتعني أن الإبداع بالنسبة لك هو أن  
ـ أحقق البطولات وأحصد الجوائز؟

ـ وهل ستتجراً أن تعتبر نفسك مبدعاً في مجال دون أن  
ـ تتتفوق فيه على الجميع؟

ـ إذاً يجب أن أرفع سقف طموحاتي، تذكرت المسؤولة  
ـ الشهيرة: اجتهد للوصول إلى القمر، حتى وإن فشلت  
ـ فلن تفوتك النجوم!

ـ ومن قال أن الطموح يحتاج إلى سقف؟ المتقاعسون  
ـ فقط يرددون هذه العبارات كتبير مسبق لفشلهم!

إبراهيم عباس

قالها وهو يتوجه نحو أحد الأبراج في طرف القلعة وأنا أتبعه،  
شعرت وهو يصعد درجات البرج متوجهًا إلى قمتها أنه يود أن  
يطردني شرّ طردة أو أن يلقي بي من أعلى ذلك البرج بسبب  
مداخلاً ماليًّا المنفلكلة، كل كلمة يقولها كانت تسبب ارتجاجاً لعند  
لا يأس به من قناعاتي:

"الشفف وحده وهم، والعمل وحده مضيعة لسوقت،  
الإبداع بدون أحدهما أخرج، هل تستطيع أن تصعد  
درجات هذا البرج بساقٍ واحدة؟"

كان يتحدث وهو يشب على درجات البرج بهمة لا تتناسب أبداً مع  
الشيب في رأسه، كنت بالكاد أجاريه في سرعته، ألهث ويلهث  
عقلي وأنا أحاول أن أدون كل ما يقوله واتدخل أحياناً:  
"بالتأكيد يجب أن أسير بشغفي واجتهادي حتى أصل  
إلى القمة"

"قلت لك لا توجد أسقف ولا قمم؛ يجب أن تسير  
بأقصى سرعة ويدون توقف قبل أن يلحق بك"

"قبل أن يلحق بي من ينافضني؟"  
"قبل أن يلحق بك الموت"

هناك

أعلن الآن عن يأسى في أن أخمن أي إجابة صحيحة لسؤاله!  
وأصل ونحن على مشارف قمة البرج:

ـ "الإبداع يا حسام سباق لا ينتهي، إذا بدأته يجب أن لا  
توقف حتى تصبح سيداً أو تسبقك الوفاة!"

ـ "فهمت! لذا هافتت سيد الفن وسيد الإبداع وسيد  
الاختراع على مر العصور!"

ـ "مر العصور؟ لم تنتهِ العصور بعد!"

ـ "لتميحك يلقي علينا مسؤولية ضخمة سيد ليوناردو!"

ـ "عليك أنت وحدك! لا تتهرب! لو كانت عندي كاميرا  
لقبضت على الحمامات في ثانية! لو كان عندي جهاز  
تسجيل لما أضعت وقتي في الكتابة، لو كان لدى إنترنت  
لاختصرت سنوات من الدراسة والبحث، لو كان لدى  
جهاز كمبيوتر لما صناعت مخطوطاتي ولما بهشت  
لوحاتي! كم أغبطكم على عصركم! وكم يغضبني  
تخاذلكم! ليس لديكم أدنى عذر في ظهور ألف ليوناردو  
يسيقون عصرهم بعصور!"

ابراهيم عباس

قالها في اللحظة التي وصلنا فيها إلى الغرفة العتيقة في أعلى البرج، مد السيد ليوناردو يده داعياً لي إلى المائدة الفاخرة المكتظة بما لذ وطاب:

”لا بد وأنك بدأت تشعر بالجوع سيد حسام“

”دعوة للعشاء الأخير..“

ابتسم لتلميحي المتذاكي وقال معقباً:

”العشاء الأول والأخير“

”وياله من تشريفاً“

قلتها أثناء انقضاضي على الأطباق، فقد كان الجوع ينهشني فعلاً، رفع حاجبيه متعجبًا من تعليقي فواصلت:

”إنني مدعو إلى التحفة التي أقحمت الدنيا إلى حقيقة الفن الحديث“

”كف عن التملق يا حسام، أعتقد أن الإجهاد العقلي والبدني الذي مررت به مؤخرًا جديّر بهذه المأدبة“

هناك

ـ سيللاش التعب عندما أحق أحلامي سيد  
ليوناردو"

هز رأسه نافياً وهو يتناول قطعة خبز لينة ساخنة قسمها نصفين  
وقال قبل أن تصل إلى فمه:

"من غير اللائق أن تذكر الأحلام والتعب في نفس  
العبارة! لا يوجد تعب بسبب السعي لتحقيق الأحلام،  
فالمبدعون لا يتبعهم سوى التخاذل عن تحقيق أحلامهم!  
أحلامك يا بني كهذه المائدة لن تلتهمها دفعة واحدة،  
لا بد أن تستمتع بتحقيقها قطعة قطعة.. تلك متعة لن  
تنتهي إلا بانتهائها.."

"أو بانتهائ أنا!"

ابتسم السيد ليوناردو، فقد استوعبت الدرسأخيراً! أغلقت  
دفترى بعد أن دونت آخر عبارة وقلت وأنا أدسه في جيب سترتي  
المزركشة:

"لقد فهمتك سيدى! وسأنفذ.. طبعاً إذا استطعت  
العودة إلى عصرى وعالمى!"

إبراهيم عباس

### "سوق تعودا"

قام بعد أن قالها وتوجه إلى النافذة المريضة التي تتوسط الغرفة وأمامها أحد اختراهاماته مغطى بالأقمشة التي لم يلبث أن أزاحها لتكتشف عن نموذج طائرة شراعية صنعها بنفسه.

"هيا يا حسام، عليك أن تبدأ السباق الآن"

فهمت مفازاه، فخلعت له القبعة وانشقت إجلالاً وتقديراً، أقيمت بقبعتي من النافذة وامتنعت الطائرة وودعت ليوناردو:

"الوحيد الذي سأسمح له بأن يسبقني هو.. أنا.. هذا

"وعد سيد ليوناردو"

قفزت، لم أتردد، لم آبه بالارتفاع الشاهق ولا بصخور الهضبة والوادي أسفل مني، حملني الشغف والريح.. وتبعتني كلمات ليوناردو الذي وقف على حافة النافذة وصرخ ليُسمعني:

"لا تنسى يا حسام.. أنا لا أرسم، ولا أخترع، وإنما أبدع بدون توقف! دع الإبداع ينساب من أعماق روحك وعقلك، حذر أن تهمله، وليهبط بعدها على أي شيء كان.. لوحة أو معزوفة أو كلمة أو هكمة.. ففضل أبدع.. أبدع بجموح وبلا توقف!"

هُنّاك

ابتسمت وأنا أستمع لصدى كلماته، كلمات بسيطة من رجل عظيم غيرت فكري عن كل شئ ! أشعر بفيضان من الإبداع على وشك الانفجار.. لمحت العربية تقترب من القلعة أسفل مني لاحظتني ملاك فأطلت من نافذتها ولوحت لي، نجحت في الهبوط بجوارها، ركضت ملاك نحو ي وعائقتي وهي تسألني:

"هاه.. كيف كان؟"

أخرجت دفتري ولوحت به أمامها بزهو وأنا أقول:

"بعد اللي تعلمتهاليوم ما أعتقد أحتاج أتعلم أي شئ ثاني ! ماني عارف كيف أقدرأشكر السيد ليوناردو.. ولا كيفأشكرك يا ملاك"

صُبِّفت وجنتها بالخجل قبل أن أكمل عبارتي فاكتفت بالصمت، احتضنت ذراعي وقادتي للعربية، تأملتها وهي تجلس بجواري، تداري إرهافها بابتسامتها، أعتقد أنها لم تتنق قسطاً من الراحة منذ أن اقتحمت أنا عالمها، سمعت ملاك ما يدور بخاطري كعادتها، شَمَالت رأسها على كتفي وأغمضت عينيها، ألا تستحق حناني بعد كل ما فعلته من أجلي ؟ ألا تستحق حبي ؟ تركت الإجابة لذراعي التي تحيطها وأناملتي التي تداعب خصلات شعرها.

ابراهيم عباس

هذاك

(7)

## أوتار روحى

ابراهيم عباس

هناك

أمضيت عقددين من سنين حياتي - التي لم تتجاوز العقددين سوى بقليل - في صفوف الدراسة، أكثر من سبعة آلاف يوم! يومٌ يركل يوماً.. وجميعها تركلني لأخرج في النهاية بورقات مختومة لا تسوى شيئاً وهي تقترن إلى الختم الأهم: ختم حرف الواو السمين المطرّز المبحراً! أما هنا فقد تعلمت كل شئ في سويعات قليلة، تعلمت أن التعليم ليس بتلقين المعلومة، ليس بخشوها في جرابات مثقوبة متهاكلة، إنما هو لياقة وفن يمكنك من الوصول إلى المعلومة المنشودة بسرعة، وتشريعها وصياغتها ونسجها مع معلومات أخرى بشكل إبداعي واستغلالها واستخدامها بأفضل طريقة ممكنة. وتعلمت ما هو أهم!

وهو أنتي مهم!

مهم جداً ومقدار لذاتي! لا لأصلي ولا فضلي ولا نسبي ولا قبيلتي ولا مرة أخرى - واسطلتني! لو أنهم فقط علمونا هذين السطرين قبل أن يتخلموا أدمنتنا بممواد محدودة الصلاحية سريعة التغير!

إبراهيم عباس

انطلقت بنا العربية بعد أن غادرنا قلعة ليوناردو، لن أطلق عليه اسم دافينشي بعد الآن! ملاك أسلمت رأسها لصدري وأسدلت ستار شعرها المذهب على أجزاء منه ومن وجهها.. وأغمضت عينيها، فتسابقت النسائم لتتسدل عبر نافذة العربية وتشارك أنامل الرقص على خصلاتها، تحمل معها العطور التي يهديها لها حقل الأزهار حولنا. اختلفت نظرتي لكل شئ تقع عليه عيناي بعد عبارات السيد ليوناردو، أصبحت أرى الأشياء بشكل اوضح، وأنصح، وأجمل.. أصبحت شغوفاً بكل شئ، تغوص عيني في تفاصيل التفاصيل لستمتع بكل ذرة جمال أو دعها الخالق البديع سبحانه في هذا الكون! بالرغم من انطلاقنا بسرعة، كنت أستمتع باللوحة التي رسمتها بتلات الأزهار المحمليّة، أتأمل ملامح كل زهرة على حدة، وأنبسم للهفتها على استراق النظر إلى وجه ملاك الذي فاقها نعومة وجمالاً، أرى الألوان قتمازج تحت قطرات الندى التي تمرح بين عروقها، مددت يدي عبر النافذة، والتقطت إحداها لأحقق لها أمنية القرب من ملاك، دسمست الزهرة بين خصلات شعرها فابتسمت، همسَتُ وكأني أخشى أن يخدش صوتي غفوتها:

"ملاك؟.. إنتِ نمتِ"

هناك

فتحت عينها بكسيل، مازالت تلك الدمعة الخجولة متشبهة  
بأهدابها، والابتسمة لم تقدر شفتيها، نظرت إلى نظرة اخترقت  
روحى بنهر مشاعرها، سعادتها بوجودي.. وحزنها على فراقي،  
أمانها معى.. وخوفها على، إنهاكها بسببي.. وطمأنيتها بين  
أحضانى، هزت رأسها إيجاباً ثم أغمضت عينيها وغاصت  
بوجهها أكثر في صدري. وصلنا.. ولكنها لم تفتح عينيها، ليست  
نائمة، فابتسمتها تفضحها، لقد أنسستى ملوك كومة العقد  
النفسية التي كنت أعاني منها، لن أتركها تعود وحدها! حملت  
طفلي على ذراعي، كالعروس بفسانها المنفوش، كنت دائماً  
أتسائل، هل سأستطيع أن أحمل عروسي ليلة زفافي؟ وحتى لو  
استطعت، ألن أبدو مضحكاً بقصر قامتي وانتفاخ كريشتى؟ ذلك  
الهاجس المرعب جعلني أتمنى أن أعود بهذا الجسد لعالمي..  
فقط بهذا الجسد الأنثيق! وضعت دميتي على السرير، وانطلقت  
إلى الإيوان، كانت بداخلي رغبة عارمة لتطبيق ما تعلمته، كان  
هناك سيل من الطاقة المتدفقة من روحي، تبحث عن متنفس  
لها، لم أجد صعوبة في إيجاد برنامج للرسم، كنت أقف أمام  
شاشة ثلاثة الأبعاد ببطولي أو أطول قليلاً، وحولى جميع أدوات  
الرسم والتلوين والنحت الافتراضية، وفي خاطري صورة واحدة  
بدأت تحتل كيانى: نظرة ملوك وابتسمتها ورأسها على صدري.

إبراهيم عباس

بدأت ألوح بيدي في الفراغ ثلاثي الأبعاد وأنا أتعامل بمهارة وسرعة مع أدوات برنامج الرسم، أو بالأصح "التجسيم" فقد كنت أجسد كل التفاصيل وأنسجها بشكل ثلاثي الأبعاد مفعم بالحياة في كل جزئية؛ كانت اللوحة تنظر إلىي، كانت تتنفس، أرى انعكاس صوري على عينيها، تترافق أهداها مع النسيم. لا أستطيع تقدير الوقت الذي قضيته وأنا منهمك مع تحفتي، كنت في شبه غيبوبة لم أفق منها إلا بعد أن أنهيتها، أعادني صوت ملائكة لوعي، لقد كانت تقف خلفي، تنظر لللوحة، تشاركها دموعها الصامتة، التفت إليها، غادرت دمعتها أهداها وتبعتها حبات اللؤلؤ، دفنت رأسها مرة أخرى في صدرِي الذي أصبح ملاداً لها وتهاوت بين أنفاسها وتهيداتها وهمساتها:

"أحبك يا حسام! والله ما أقدر أعيش من غيرك!"

أمسكتها من كتفيها ونظرت لعينيها مباشرة وقلت:

"ملائكة! أرجعي مهياً لعالمي!"

"يعني تتوقع لو أقدر كان اترددت لحظة؟"

"أكيد فيه طريقة! لازم تكون فيه طريقة!"

هناك

رفعت رأسها ومسحت دموعها وأنفها المتورد بذراعها وحاولت  
تلطيف الأجواء وهي تشير إلى اللوحة ثلاثية الأبعاد التي تعلفو  
خلفي:

"مممم.. يعني زيارتك للسيد ليو كانت مفيدة؟"

"أهه.. هذى أول تجربة.."

"تجربة؟ ياخى حرام عليك! هذى طلعت أحلا منى!!"

"ما أسمح لك تقولى إنه فيه شئ في الدنيا أحلا منك!  
حتى لو كانت صورتك!"

فاضت دللاً وغبطة وهي تقول:

"وكمان اتعلمت الشعر والفن والغزل!!"

"الفن والشعر والفنزلي اللي في الدنيا ما يقدروا يوهوا  
نظرة من عينك حقها!!"

أريكتها تغزلاتي المتمالية جداً، فقررت أن أزبح عنها الارتباك  
وأغير الموضوع:

ابراهيم عباس

"عندى سؤال محيرنى من أول ما وصلت هنا.. كيف  
أعرف الوقت؟ كم الساعة؟"

"طلب ليش بتسأل؟"

"كيف يعني ليش بامسأل؟ أبغى أعرف قد أيش بعدت عن  
أهلني؟ أبغى أعرف ليلي من نهاري؟ متى أصحى؟ متى  
آنام؟ متى أصللي؟"

"تقدير تمام وتصحى وتصلى وقت ما تحبـاـ)"

"طلب أنا هنا من متى؟ كم الفترة اللي قضيتها؟"

"يعنى.. تقديريراً لو حسبيها بعدد الساعات تطلع  
يومين.. أو ثلاثة.. حسب توقيت عالمنا"

"وحسب توقيت عالي؟"

"دقيقتين وثمانية وخمسين ثانية!"

"هاد معقول؟ دا كله في دقيقتين بس؟ وكيف عرفتـي  
تحسيبيها بهذى الدقة؟"

هناك

"مو يكفي أسئلة؟"

"طلب تعرفي فين اتجاه القبلة؟"

"لا.. ما أعرف كيف أحدها من هنا!"

"طلب معليش.. إنتِ تصلي أصلًا؟"

قلتها بعفوية ولكنها تضاعفت جداً، ومن لا يتضاعف من سؤال  
كهذا؟ أجابته بحزم:

"طبعاً كلّ قد علم صلاته وتبسيحه!"

تلقيت صفعتها بصدر رحب؛ استحقها! توضّأت.. وصلّيت ما  
تيسر لي من ركعات نحو الوجهة التي تيسّرت لي، وملاك تجلس  
على طرف السرير تراقبني.

"تقبل الله"

أجبتها بنبرة فتنى المركز الصيفي:

"جزاك الله خيراً!"

"تبسيت ما تقول يا أخيتي"

إبراهيم عباس

خفة دمها تشفع لها دائمًا عندما تتمادي في مزحها الثقيل، يجحب  
أن أهترف؛ وجمالها أيضًا!

"يلا بسرعة خذ دش بلاش لكااعة"

دخلت الحمام لأنزع تلك الملابس الغريبة وأستحم بسرعة،  
خرجت فلم أجدها، وإنما وجدت ملابس جديدة اختارتها هي  
بعناء، قميص أبيض بياقة مطرزة، وبذلة سوداء مخملية وشئ  
يشبه ربطة العنق، لفافة بيضاء حول الرقبة، لم أجد صعوبة في  
ارتدائها، فبعد العناء الذي واجهته في زي العصور الوسطى لن  
يصعب علي ارتداء أي شئ آخر. سمعت قرعًا على الباب.. هل  
يعقل أن تكون ملاك قد ذهب لتفجير ملابسها وعادت بهذه  
السرعة؟ أنتي الإجابة الصارمة من الخارج:

"افتح يا حسام أنا خالد"

خالد؟ كيف وصل إلي؟ وماذا يريد يا ترى؟

انتابني الفضول والرغبة في سؤاله عن كل شئ تخفيه عنني  
ملاك، وفي نفس الوقت توجست مما يمكن أن ينوي عليه، بالذات  
بعد أن حاول تسميمي.

هناك

فتحت الباب.. لا يمكن أن تخفي هذه النظرة أي نوايا سيئة!  
توجه للشرفة وجلس على أحد مقاعدها فتبعته.

"حسام.. كيف حال مرام؟"

مارام أختي الصغرى التي لم تتم ربيعتها الثامن عشر بعد. كيف  
عرفها؟ هل كان يطلع على تفاصيل حياتي هو الآخر؟  
"مرام بخير.. طبعاً لحد آخر مرة شفتها!"

نظر للأفق وقال بتأنٍ:

"تلقيها كبرت وصارت عروسه!"

"كيف تعرف عني كل شيء؟ إنت كمان كنت بيترافقيني؟"

تجاهل سؤالي وهو يقول:

"مرام مالها غيرك بعد الله!"

"وأمي الله يعطيها طولة العمر والعافية!"

"اسمع يا حسام، ملاك تبغاك تسأب أهلك وتعيش هنا!  
ملاك ما يهمّها أحد منهم! أهم شيء عندها إنك تقضي  
معاهَا إنت بعدت عن عالمك ثلاثة دقائق، لو كملت  
سبع دقائق ما حتقدر ترجع! وتحفضل هنا للأبد!"

إبراهيم عباس

"يعني ملاك تبغي تحبسني هنا؟ عندها الحل اللي  
يرجعني لأهلي وساكته؟"

"أنا عندي الحل!"

قالها ووقف وتوجه إلى طرف الشرفة:

"لو تبغى تعيش بين أهلك.. لازم تموت هنا ببساطة  
غمض عينك وأرمي نفسك من هنا، ورح ترجع لأهلك!  
لا تنفس، كل لحظة محسوبة عليك!"

قالها وغادرني وسط ذهولي ودقات قلبي العنيفة وأنا أقف على حافة الشرفة، الشرفة التي تفصلني عن العودة لأهلي وعمالي، الشرفة التي قد تفصلني أيضاً عن ملاك.. تحرمني منها بعد أن تعلق بها قلبي وارتبطت بروحها روحياً. ولكن أهلي أهم من ملاك.. وأهم مني! أهم من قلبي وروحني! شعور غريب جعلني أصدقه، أؤمن بكل حرف قاله، هل هو التعلق بالأمل؟ أم الارتياب الغريب الذي شعرت به تجاهه؟ هل حاول تسميمي كي أعود إلى أهلي؟ هل هي الوسيلة الوحيدة للاستيقاظ ومجادرة هذا العالم؟ الآن سأتأكد بنفسي!

هناك

أغمضت عيني.. تسمّرت على حافة الشرفة لفترة تكفي لاسترجاع ما أذكره من تفاصيل حياتي، ولملمة شجاعتي ولهضتي على أهلي لأقنع نفسي بأنني حبس في داخل هذا الحلم، لن أخسر شيئاً بمخادرته! ولن يحررني منه سوى الموت فيه لستيقظ روحى وتعود إلى جسدي. دبّ الخدر في أطراقي وتلاعبت الرياح بتوازني وأنا أقف على الحافة وأفرد ذراعي لأطير عائداً إلى أهلي.

"حسااااام"

صرخة ملاك كانت الفاصل بين الموت هنا والحياة هناك! أطلقتها في لحظة ترنيحي وسحبتي بكل قوتها فسقطت عليها وضمتني وأنا على الأرض، تبكي وتحسّس وجهي وكأنها لا تصدق أنني ما زلت معها.

"حسام!! ليش يا حسام حرام عليك؟"

اعتدلت في جلستي وقلت لها بغضب:

"تضحكى علي طول الوقت!! تبغي تحبسيني هنا؟"

ابراهيم عباس

"حسام إنت منت فاهم شي؟ صدقني يا حسام أنا ما  
أبغى غير مصلحتك!!"

"وأنا ما أبغى غير مصلحة أهلي! سبببني لازم أرجع لهم  
قبل فوات الأوان!"

"حسام! أرجوك!! طب كمّل معايا أربعة أيام هنا، بس  
أربعة أيام.. ما حتسوى غير ثلاثة أو أربع دقائق في  
عالنك، أبوس يدك يا حسام!!"

دموعها التي تذيب الصخر أذابت قلبي، ههدأت نبرتي وأنا أقول:

"لكن لو مررت هذي الفترة رح أنجعيس هنا .. صح<sup>5</sup>"

"حسام أنا عارفة بالضبط متى لازم ترجع، ووقتها أنا  
رح أرجعك بنفسك لو أصررت إنك تسبببني.. أقسم لك  
بالله<sup>6</sup>"

وقفت، وحملتها من تحت ذراعيها لتفقد، مساحت دموعها ييدي..

"طب خلاص بلاش دموع، أرجوكِ ما أقدر أستحمل<sup>7</sup>"

هناك

وضعت جبها وسط صدري وأخذت تلجمي عليه ببراءة:

"إنت تبغى تموتي يا معجنون؟"

"بعيد الشر عنك يا ملاكا!"

انزلقت ذراعها تحت ذراعي وسحبتي وهي تقول بالألمانية بنبرة  
مرحة لا تزال مبتلة بدموعها:

"هيا بنا.. يكفيننا لحظات درامية! سوف نتأخر عن

"موعدنا مع السيد لودفيغ!"

قالتها وظهرت أمامي فجأة كرة فضية طفت من الأسفل للأعلى  
بيطء شد وغضت أفق الشرفة.. إنه منطاد أحد المناطيد التي  
ودعت عصور ما قبل المركبات النفاثة، كابينة خشبية صغيرة  
يحملها بالون بيضاوي بحجم الجناح الذي أعيش فيه تقريباً..  
توقف بمحاذاته تماماً فصعدنا أنا وملاكي وانطلق بنا مقابلة  
السيد لودفيغ.

هبط بنا المنطاد في حديقة أمام مبني قديم اسطواني الشكل  
تزينه الأعمدة والنقوش التي تتبااهي بعصر الفهضة..

ابراهيم عباس

كان المبني عبارة عن مسرح فاره تفوح الا رستقراطية من بين ثنياه. تردد جدرانه معزوفة موسيقية، على العكس تماماً من الموسيقى التي سمعتها عند السيد ليو، فلم تكن آلة واحدة تعزف لحناً هادئاً، وإنما عشرات الآلات اشتربت في ملحمة عنيفة؛ دخلنا قاعة المسرح، بالفعل كانت هناك أوركسترا متكاملة، كان يقودها السيد لودفيغ، يعزف على البيانو بعصبية ويرفع يده من وقت لآخر ليوجه فريقه. تخللت عني ملاك مرة أخرى فأجلستني أمام السيد لودفيغ مباشرة وذهبت هي لتجلس في آخر القاعة الخالية. طبعاً لم أجرؤ حتى على إزعاجه بأنفاسي وهو في قمة حماسه وعصبيته.

كان شعره الفضي المسترسل يشارك أنامله في انفعالاتها، وقطرات عرقه تنهال على مفاتيح البيانو الذي ثار مع ثورته، وفجأة.. توقف؛ رفع يده آمراً الجميع بالتوقف، رأسه لا يزال مسدلاً على البيانو وعيناه مغمضتان، شق طريقة بين العازفين الذين انتابتهم موجة رعب صامت، وتوقف عند إحدى عازفات الكمان.

هناك

كان هناك أكثر من عشرين عازف للكمان ولكن توقف عندها  
بالذات، وأرتعدت عندما فتح عينه فجأة وصرخ فيها:

"ماذا تفعلين؟!"

لم تجرؤ على إجابته، واكتسح العرق جبينها واللون الزهري  
خديها وتسمرت عيناهما على الأرض.. فواصل مزمجراً:

"ماذا تفعلين؟! هل أصبت بالصمم أنت أيضاً؟"

"أعزف يا سيدى.. أعزف!"

"فعلاً كنت تعزفين.. فقط تعزفين!"

رفع رأسه والتقت للجميع وصرخ غاضباً:

"من يعتقد أنه جاء هنا فقط ليعرف هليغادر حالاً!"

نزع الكمان منها وبدأ يعزف بسرعة وعصبية تلك الممزوجة  
العنيفة الغاضبة وواصل توبيقه لها بالرغم من عزفه السريع  
دون أن ينظر إليها:

"لماذا تعزفين هاء؟ فتاة مثلك يجب أن تبقى في البيت!  
 تنطف وتطبخ وتصلب الأبقار! فتاة رقيقة مثلك لا  
 تستطيع أن تهاجم في سيمفونية كهنة! أتدلين الكمان؟  
 ماذا تظنين؟ صديقتك التافهة؟ عشيقك الأحمق؟"

اصططع خداها بلون زهري داكن فاختفى النمش الذي كان يعلوها، وتحول أنفها للون أحمر حاتق، وأصبحت فتحتها كاملة الاستدارة تضيقان وتتسعان وهي تزفر غضبها، لم تحتمل إهانات السيد لودفيغ فانتزعت منه كمانها وأطلقت اللبوة المتوجسة التي كانت تخفي خلف نمشها ورفتها فانقضت بمخالبها على رقبة الكمان المسكين، وأوثقته ما بين خدّها وكتفها، ونبشت أوتاره بكل شراسة، لم تلا حظ الابتسامة الطفيفة التي علمت وجه السيد لودفيغ للحظات قبل أن يعود.

أتم معزوفته الخرافية، توقف شعر جسمي ليلاقي له التحية، كان فريقه ككتيبة نجت للتو من حرب كادت أن تبيدهم، يضعون أسلحة العزف جانبًا، يلتقطون أنفاسهم، يمسحون عرقهم.. ما عدا السيد لودفيغ الذي أخرج مجموعة أوراق من جيب سترته الداخلية وبدأ يدون ملاحظاته عليها.

مِنْكَ

اقترست منه بهدوء؛ كانت أوراقه مكتظة بالخطوط والرموز  
الموسيقية وكان يشطب بعضها ويضيف عليها.. فهمست عند

أذنه:

"أنت بيتهوشن أليس كذلك؟ لودهينغ ثان بيتهوشن! لقد  
تذكريت وتذكريت هذه المعزوفة، إنها سيمفونيتك الدA..  
الخامسة على ما أعتقد صحيحة الخامسة أو التاسعة؟"

لم يكن سؤالي الساذج جديراً بأي إجابة، وهذا ما حصل.. لقد  
تجاهلني تماماً. وبعد لحظات قال:

"ما أعظم نعمة الصمم!"

قالها وتنزع سماعه صغيرة كانت مثبتة في أذنه، وضعها جانباً  
وواصل:

"ما أروع أن يسمع الإنسان ما يشاء، ويضم عما يشاء!"

"صحيح تذكريت، لقد أصبت بالصمم!"

"هذا صحيح!"

"ala tsumuni al-an?"

إبراهيم عباس

"لا أسمعك!"

"ولكن.. ولكن كيف.. هل تقرأ حركة شفاهي؟"

"أنا لا أسمعك بأذني!"

كانت كل كلمة يقولها تزيدني حيرة..

"أنتم تسمونون بسبب اهتزاز الطلبة الصغيرة في آذانكم،  
أما أنا فكل ذرة في كياني تشعر باهتزاز الأصوات، كل  
خلية في جسمي تحولت لأذن صاغية مرهفة!"

"كنت دائمًا أتساءل: كيف تؤلف الموسيقى دون حتى أن  
تسمعها!"

"حاسة السمع عندي ضمرت مع السنين، حتى تلاشت..  
حاولت أن أتخلص من حياتي، كدت أن أنتحر، ولكن مع  
اقترابي من الموت كُتبت لي حياة جديدة!"

قالها وكأنه يلمح لي بشئ، طبعاً كنت أدون كل شئ بالتفصيل في  
دفترى.. فواصل:

هناك

رؤيه الموت وجهاً لوجه جعلتني أتساءل: أليست حياتي  
جديةة بتحدى أخير؟ وفي كل الأحوال لن أخسر أكثر مما  
خسرته؟"

"ولكن الانتحار جريمة وفشل!"

"اكتشفت أنني كنت ميتاً بين الأحياء.. فقررت أن أحيا  
بعد مماتي؟"

التفت إلى أخيراً وهو يقول:

"لا يوجد انتحار أبيشع من الحياة بدون هدف ويدون  
تحدى وإنجاز ويدون صياغة للتاريخ! هذه ليست حياة  
 وإنما إهدار للأكسجين على كوكب الأرض؟"

سكت قليلاً ثم واصل:

"سيد حسام، إن لم تكن لديك نية جادة لتغيير التاريخ..  
فأنت تضيع وقتي ووقتك."

لو أخبرته بأن أقصى غايتي هو تأمين الوظيفة -أياً كانت-  
والراتب والزوجة وإيجار الشقة، لاكتشف أنني جثة تمشي على  
الأرض، تستنزف مواردها ولا تستحق رشفة من أكسجينها.."

إبراهيم عباس

تجاهلت كل ذلك وقلت عبارتي الإلزامية بكل صرامة:

"سوف أغير التاريخ سيد لودفيغ"

فتح غطاء البيانو وضرب على أحد الأوتار الغليظة فاهتز مصدر رنة رخيمة ووضع يده بقرمه وكأنه يستمتع بذبذباته وهي تدغدغ أنامله..

"ماذا تريد أن تتعلم مني إذا؟"

أخشى إن قلت "الموسيقى" أن أواجه مصير تلك الفتاة المسكينة، أسئلة كأسئلة لييو، عبارة عن أفخاخ تثبت حماقتني وجهلي، فابتكرت إجابة مختلفة:

"أريد أن أعرف كيف أصبحت أعظم عازف موسيقى؟"

"عازفٌ"

كنت أنهش ذاكرتي لأستخرج منها كل ما أعرفه عنه تلافيًا للاحرج، تذكرت معزوفاته، وإنجازاته بالإضافة إلى عصبيته فاستدركت فوراً قبل أن يتور:

"أقصد مؤلفاً"

هناك

"أنا كاتب موسيقى! أنت تعيش في العام الرابع عشر بعد  
الألفين صحيح؟"

"صحيح!"

"معقول؟، ألم يبرز من هو أفضل مني حتى الآن؟"

"لا"

"شيء مضحك فعلاً، أعظم موسقياً؟! بعد قرنين من  
الزمن! لقد كنت منبوداً من الأوساط الارستوغرافية  
وممنوعاً من دخول قاعات الأوبراكيسترا"

"ماذا؟"

"لم يتقبلوا تفوق أصم قصير شاحبٍ مثلِي عليهم كما لم  
يكن لدي الوقت للتأني والتملُّك كي أندمج معهم، لقد  
كنت مشغولاً بالموسيقى، ويركل الذين يشوهونها كلما  
سنحت لي الفرصة!"

إبراهيم عباس

"من تتحدث سيد بيتهوفن؟ أنت معجزة غيرت تاريخ  
الموسيقى بأكملها! جميع أمم أوروبا اختارت (أنشودة  
البهجة) التي ذيلت بها سيمفونيتك التاسعة كشعار لها  
منذ أربعين سنة!"

"من المحزن أنهم يحاربون العظام حين يبدعون، ولا  
يتغدون بهم إلا بعد مماتهم! لم أحزن على موتي قبل أن  
أشاهد انتصاري بقدر حزني على موت أعدائي قبل أن  
يتذوقوا هزيمتهم!"

ابتلع مرارته ويدرني بالسؤال:

"هل تعرف ما هي الموسيقى؟"

تجاهل تبلّمي وأجابني:

"الموسيقى هي التنااغم.. تنااغم الأصوات، تنااغم  
الأشكال، تنااغم الأرواح؛ الحياة ليست إلا سيمفونية  
سلسة عذبة، منّا من ينسجم مع ألحانها، ومنا من ينشز  
فتتبّده وينبذها!"

هناك

(سيمفونية الحياة) دونت الملاحظات في دفترى بينما واصل  
بيتهوفن وكأنه يستمع لعزوفة داخل روحه:

"ما نعزفه ليس إلا محاكاة إيقاعية للألحان التي تفوح  
في داخل أرواحنا، نحاول ترجمتها من خلال هذه  
الآلات!"

انسابت معزوفته من داخل روحه إلى أصابعه التي بدأت تعزف  
على البيانو تتفاعل مع مشاعره، وكأنها خلفية موسيقية صممت  
خصيصاً لكل كلمة يقولها:

"المusic هي التي تبعث الحياة في المعاني من حولنا،  
الحب (قالها بحنان وترابخ عزفه) القلب (قالها  
بانفعال واشتد عزفه) الحزن (قالها بأسى صبغ  
الحانه)"

فعلاً لو ردت هذه الكلمات بدون النغمات التي تعكس  
انفعالاتها لتجردت من معانيها، بل بالعكس، قد يردد الشخص  
عبارات الحب ولكن نبرته تبث معاني الكره، قد يردد عبارات  
الشجاعة والقوة ونبرته تتمزق خوفاً ووجلاً

براهيم عباس

"العزف هو الخطوة الأخيرة في بث تلك المشاعر، مجرد إطار، الأهم هو ما يكمن في أعماق ذلك الإطار!"

"سيد بيتهوفين، لقد ذكرتني بنظرية الأوتار - The  
"Strings Theory"

"The Strings Theory?!"

"من النظريات الحديثة التي تفسّر أصل التكوين وتشرح  
أساسيات المادة والطاقة؛ كل شئ حولنا ليس إلا حزم  
كمية على شكل أوتار متاهية الدقة تتعدد خصائصها  
بذبذباتها، وتتفاعلاتها بتناقضها"

"وهل نحتاج إلى نظريات وبراهين كي نعرف أن الوجود  
متناضم وموزون؟"

قام من على كرسي البيانو وباغتي:

"تفضل!"

لقد حانت لحظة الإلراج العظمى!

۱۰

أنا الذي لم أعزف في حياتي سوى الثنائي الأولى الكسيحة من  
هابي بيرث داي تو يو، وأهواك، ويا طيب القلب.. أعزف اليوم  
 أمام بيتهوهن بشحمه ولحمه<sup>١٦</sup> جلست على الكرسي، ومددت  
أصابعى المرتجفة، سأحاول عزف لحن التايتانك الذى عزفته مع  
ملاك، اختفت ارتعادتى مع نقراتي.. وانطلقت!

كان بيتهوشن متكتأً على حافة البيانو، مطرقاً رأسه، مكتفياً ذراعيه، أطراف أصابعه التي ترفض التوقف عن العزف تتحرك في الهواء مع اللحن.. وانتهيت. لم أكن أريد أن أسمع رأيه، فقط أريد النهاذ بجلدي من هذا الموقف!

“بدأتها بـأبي ميجور.. ترسل رسالة حب ووفاء.. وارتقت  
الانفعالات تحكي صراعاً وتحريك حزناً.. ثم انتهت بوعد  
الحب الأيدي رضم الفراق”

لقد لخص قصة الفيلم! فقط بالاستماع للموسيقى! بدأ رأسى بالانتفاخ إلى أن سألنى السؤال القاتل:

"متن کتبها"

".. أنا لم أؤلفها، وإنما عزفتها على طريقي.."

ابراهيم عباس

"اسمع يا سيد حسام، العزف هو أسهل ما يمكنك  
تعلمـه! يمكنك أن تتقن بـث مشاعرك عبرـأي آلة  
موسيـقية، إذا توفـرت تلك المشـاعر، وكانت صـادقة قـوية  
فيـاضة!"

أغلـق غـطاء لوـحة المـفاتـيح وـوـاصلـ:

"من يـكتبـ الشـعـرـ لـيـسـ كـمـنـ يـرـدـدـهـ منـ يـكـتبـ الرـوـاـيـةـ  
لـيـسـ كـمـنـ يـقـرـؤـهـاـ منـ يـكـتبـ الـموـسـيـقـىـ لـيـرـوـيـ إـحـسـاسـ  
رـوـحـهـ، لـيـسـ كـمـنـ يـعـزـفـهـ لـيـتـبـاهـيـ أـمـامـ النـاسـاـ!"

"ولـكـنـ لاـ بـدـ أـنـ تـقـنـ العـزـفـ عـلـىـ الـآـلـةـ قـبـلـ أـنـ أـكـتـبـ  
الـموـسـيـقـىـ لـيـسـ كـذـلـكـ!"

"أـنـتـ تـحـمـلـ أـعـظـمـ آـلـةـ موـسـيـقـىـ يـاـ حـسـامـ.. تـعـزـفـ عـلـيـهـاـ  
باـحـتـرـافـ دونـ تـوقـفـ"

لغـزـ آخرـ.. سـأـنـتـظـرـ حلـهـ..

"هـلـ تـذـكـرـ أـوـلـ لـحنـ أـسـتـمـعـتـ بـهـ؟"

هناك

"بصراحة وبعيداً عن المجاملات، معزوفتك العظيمة  
التي عزفتها من أجل إليسا Für Elise تلك كانت أول  
اسطوانة أحصل عليها في حياتي"

"أول لحن طربت له يا حسام هو غناء والدتك مع عزف  
أنفاسها ودقات قلبها الذي احتضنك جنيناً يكتشف  
شعور السمع للمرة الأولى.. كم مرة التصقت معزوفة  
بدماغك وتردد صداها في دهاليزه رغمَ عنك؟ كم مرة  
أنساك الانسجام نفسك وجعلك تندنن إلا لحن لا  
شعوري؟"

"أتقصد أن دماغي هو..."

"نعم! الدماغ هو أعظم آلة موسيقية على الإطلاق!  
تساب بداخله إلا لحان دون توقف لتسجم مع  
انفعالات الروح، تلك هي الموسيقى المصاحبة لحياتنا،  
تببدأ بيدياتها وتتلاشى تدريجياً كلما كبرنا وتشاغلنا عن  
ذواتنا وتمردنا على أرواحنا"

ترك بيته وهن البيانو وتقدم نحو ممر في طرف القاعة ينتهي ببابٍ أسود مفطى بوسادة جلدية مزخرفة، تبعته إلى الفراغ المعزول خلف ذلك الباب، لأول مرة أشعر بالهدوء المطلق، لدرجة جعلتني أنزعج من ضجيج أنفاسي وطنين أذني.

"مرحباً بك إلى داخل الآلة الموسيقية العظمنا"

قالها فتوهنجت إضاءة خافتة من سقف الغرفة الشاسعة، وكشفت وسط الظلام عن عدد لا حصر له من الأوتار العملاقة التي تقاطع في كل اتجاه، نحن فعلًا في داخل آلة موسيقية هائلة!

"هذه الأوتار ستعزف أي لحن يصدره وجودك، لا داعي لأن تريك عقلك بقسر المفاتيح ونقر الأوتار ونفع الأبواق.. دع ذلك للآلات، ما يهم هو أن تعرف.. وتعزف ما تشعر به"

أغرقني تلك الأوتار بالعزف، ولكنني لن أطالها إلا بوجودك، مهممت بدايات لحنك، فاهتزت معها الأوتار وانطلق اللحن..

مُناك

لست بحاجة إلى الهمة، فقد كانت الأوتار تقرأني وتعزف ما  
بداخلني، فعلاً إلا هم هو أن أشعر بالحنن بكل شفافية وعمق،  
والعزف تحصيل حاصل.. تصاعدت انفعالاتي مع الحاني  
وتمازجت معها الحان أخرى لم أعرف مصدرها إلى أن شعرت  
بخد ملاك ويديها تكتئان على كتفي، لم أشعر بها وهي تدفع  
الباب ببطء وتقترب لمشاركة وجداي، عزفنا سوية، وشاركتنا  
قلوبنا الرقص إلى أن تناهت المعزوفة.

لقد أذهلت الحاننا بيتهوفين شخصياً.. أثارت وجداه ليبدأ في  
معروفةٍ لم تحتمل الاحتباس داخل روحه، فحررها من أسرها..

بالرغم من صمتنا، أشارت إلى ملاك بسبابتها على شفتيها كي  
لا تخಡش انسجام بيتهوفين، وسحبتي من يدي برفق لنفادر،  
ليس من اللائق أن أذهب دون أن أودعه وأشكره، ولكن معاير  
الذوق تلزم الصمت احتراماً لعزفه، اكتفيت بالهمس بيني وبين  
نفسي:

ـشكراً سيد لودفيغ.. أعدك أن أغير العالم!ـ

إبراهيم عباس

بالطبع لم يرد علي، فهو بحاجة للحظات الصمم الآن، لكنه  
ابتسم ابتسامة خفيفة وواصل عزفه وهو مغمض عينيه، وسمعت  
الرد في ألحانه، كانت تقول لي:

"إن أرادت روحك تغيير عالمك، فتأكد أنه سيتغيرا"

منك

(8)

الحياة.. جولة جولة

ابراهيم عباس

هناك

أكثر شيء يهمني هنا، هو أنا قدراتي الجسمانية،  
 قدراتي العقلية، والأهم من هذا وذاك كمية النشاط والطاقة  
 الهائلة التي تتدفق في عروقي. أكبر كارثة كنت أعاني منها هي  
 حياتي هي الكسل، ليست كارثة، بل جريمة أرتكبها بحق نفسي..  
 جريمة يشاركتي فيها كل من حولي! الجميع كسالى، الجميع  
 مجرمون! الفرق بيننا وبين المعلماء الذين حققوا التجاج ليس في  
 قدراتهم الخارقة ولا مواهبهم الفذّ، الفرق الجوهرى هو  
 الهمة.. النشاط.. الالتزام.. العمل الجاد المتواصل. هذه الصفات  
 هي التي تصنع المعلماء! من لا يبلغ العظمة ليس له أي عذر؛  
 أحلامنا إن لم تتحقق.. فتحن لا تستحقها!

ليلة البارحة تيقنت أنني في حلم.. أجمل ليلة عشتها في حياتي  
 وجميع أحلامي وخيالي. أهلكنا التعب أنا ومالك، ولكن صدى  
 الألحان الساحرة لم يفارق ذمي.. إلى أن بدأت ملاك بالغناء.  
 أنسنتي أن البشر اخترعوا الموسيقى وابتكروا آلاتها.

ابراهيم عباس

تریّقت على السرير بعد أن أصدرت أوامرها للقباب التي تغطي سقف غرفتي فتداخلت في بعضها لتكشف عن منجم ألماس براق يسبح فوق أمواج سماء قرمذية لا يحرك سكونها سوى بضع نسائم تسللت اليهنا متقلبة على خجلها فقط لمداعبة خصلات شعر ملوك التي داعبت بدورها خصلات شعري وحواجزي وحدني وأرنبة أذني بعد أن وضعت رأسى على حجرها وأنا مغمض عيني أستمتع بفنائها الذي زاده الهمس عنوية وأضفت عليه بحةً لذيدة غمضتني في غيبوبة لا أود الاستيقاظ منها.

ولكتني استيقظت، غادرت بعد أن أخلدتني لهدي وتركت لي رسالة خطتها على دفترى ووquetteها بشفتيها:

"حبببي حسام.. أضطررت أمشي غصب عنى، لازم أخلص مليون شغله.. أنا أموت فىك.. ملاك"

لا أزال متحمساً جداً لممارسة ما تعلمته من السيد بيتهوشن، أصيّبت أصابعى بنوبة هستيريا لن تهدأ سوى بالعزف لا

انطلقت إلى المصعد، نزلت، ووجدت ليان وأخواتها كما توقعت. ثلاثة حوريات يجلسن حول النافورة ويعززن من أعماق أرواحهن.

هناك

تفاجأن عندما وقفت أمامهن لأتأملهن، لأغوص داخل وجدان كل  
منهن من خلال عزفها وألحانها، ابتسمت لهن كي أخفف من  
ارتباكن ولم أنجح، حيث مزقهن الخجل وتوقفن عن العزف،  
صافت بيدي ..

"براهموا من جد أروع عزف سمعته في حياتي"

توردت ليان وبالكلاد سمعت تتمتها:

"هذا من لطفك يا أستاذ حسام!"

"على فكرة أنا حسام! اسمي حسام من غير ألقاب!  
أصلاً ما أطيق كلمة أستاذ!"

"المعذرة يا سيد حسام"

"ما قلنا بلاش ألقاب.. تعالوا أوريكم الطرب على  
أصوله"

جلست بينهن على طرف النافورة، ذاتي أكواخ الخجل وتحولت  
لنهر من اللطف وخفة الدم، مرت بنا الساعات سريعة ونحن  
نعزف ونغنّي، تذكرت معظم الأغانى التي سمعتها في حياتي،  
عزفتها، وغنيتها معهن؛ من أغاني أم كلثوم وحتى أغاني أفلام  
الكرتون!

إبراهيم عباس

أعتقد أن كارلوس سانتانا سيتحطم نفسياً وأن إريك كلاپتون سيغتزل إن سمعاً عزفي على الفيتار! لم أجرؤ طبعاً على طلب تعلم الفيتار من بيتهوشن، وإلا لحطمه على تافوخي. فعلاً لم أشعر بوقتي وأنا غارق في المتعة مع ليان وأخواتها، حتى بترت ملائكة متعتنا فجأة! كانت واقفة أمامي مكتفة يديها وجهاتها تحول بالكامل إلى كتلة من الفضب.. والغيرة، لم ألاحظ أنها وجودها في البداية فقد كنت منهمكاً بالعزف والغناء إلى أن لاحظت ارتباك ليان وشلل ليانا واصفرار وجه لين. رفعت رأسي نحو ملائكة فقالت:

“学习中国呢？太棒了！”

طبعاً لم أفهم من رطنها شيئاً! فقط استوعبت أنها كانت عبارة غاضبة باللغة الصينية الكانتونية التي كان من المفترض أن أتقنها بدل أن أضيع الوقت مع ليان وأخواتها..”

ملائكة لم تقرصني من أذني ولم تجرني بها إلى المصعد، ولكنني شعرت ضملياً بالألم والشد في أذني، لم تستطع الحوريات حبس ضحكاتهن الخفيفة وأنا أتوجه إلى المصعد كطفلٍ سيعرض للتوبیخ الشديد!

هناك

"يعني حضرتك سايب الشغل وجالس تتزاغد مع البنات! لا تنسى إن الوقت مو في صالحنا أبداً!"

فالتها بغضب ونحن في طريقنا إلى غرفتي..

"مو مشكلة!! أديني ساعة بس وأنا أتعلم لك فيها صيني ولاوندي كمان!"

"كنت متوقعة!"

"متوقعة إيش؟"

"غرورك!"

"هذي اسمها ثقة في النفس!"

"هذي اسمها مكايرة! مو لايق عليك الغرور يا حسام!  
أنا عشقتك بكل عيوبك.. طالما روحك ما بتتغير  
وتنكبرا!"

"لا تقلبيها حكم ومواعظ! خلاص اعترف بغلطي!"

"لحسن حظك السيد بروس يتكلم إنجليزي!"

إبراهيم عباس

“طلب ما قلت لك من أول بلا شيء الغلبة وخلينا  
نمشيّها بالإنجليزي أو جهاز الترجمة»

“وأنا قلت لك إنه ما فيش أحسن من التفاهم مع  
الشخص بلغته الأصلية»

غاصت في غرفة الملابس، وعادت بسترة رياضية صفراء، مزينة  
بخطين عريضين أسودين على طول أكمامها..

”تذكريت!“

هتفتُ بها فأجابتي:

”تذكريت السيد بروس؟“

”لا تذكريت إني إتحادي حتى النخاع! كيف عرفت إني  
إتحادي؟“

لا تزال غيرتها مشتعلة لا ألومها بصرامة لإشعال غيرة الفتيات  
لذة خاصة!.. أفضّل أن أتوخى الحذر حتى وأنا أفكّر مع نفسي،  
لا تتسلوا أنها تستشعر أفكاري وقد تنفجر في أي لحظة! ألت  
بالملابس على وجهي وقالت بعصبية:

هناك

"عندك ثلاث دقائق لا تغير ملابسك على بال ما أجيبي  
السيارة من الموقف! لو تأخرت ثانية وحدة حالي  
الموعد.. مفهوم؟"

قالتها بهجة آمرة لا تتماشى أبداً مع رقتها ونعومتها.. ولكنها فاتحة حتى وهي في قمة غضبها! لبست بسرعة خارقة ونزلت في اللحظة التي علا فيها هدير محرك سيارة شيقيللي ماليبو وظهرت مقدمتها الحمراء الطويلة تقودها ملاك التي لفتت على رأسها منديلأ حورييراً أبيض مزين بدواير سوداء وارتدت نظارة داكنة كبيرة، كأنها إحدى ممثلات هوليوود في عز السبعينيات.

"بسوق وللا أسوق أنا؟"

"ما عندنا حرير يسوقوا!"

طفح الدي-إن-إيه المحلي من عبارتي تلك ولكنها أخذتها بمرح، ففخرت من مقعد السائق إلى المقعد الذي بجواره، ركبت السيارة وانطلقت بها، آآآه ما أروع هذا الشعور، كم اشتقت لمقد السيارة! طار منديل ملاك وأنا أزيد من سرعتي، مالت هي علي وتشبت بذراعي.. هل هو الخوف من السرعة؟ أم الحب واللهفة، لا يهم طالما ملاكي متعلقة بذراعي.

ابراهيم عباس

كل شئ في هذه السيارة كان كلا سبيكياً، سقفها المكسوف، مقاعدها الجلدية اللبنية، مقودها الخشبي، مشغل أشرطة الكارتيج العتيق مع الموسيقى السبعينية التي يطلقها.. كل شئ فيما عدا سرعتها، كانت جنونية!

تلك المدينة الهائلة التي غادرناها للتو لم يعد يظهر منها سوى طرف البرج المركزي في المرآة الخلفية للسيارة وانزلق بسرعة مختفيًا خلف الأفق، وصلنا لأطراف مدينة أخرى، قديمة مهجورة، وتوقفنا أمام مستودع كبير، كانت جدرانه المعدنية تردد أصوات ارتطامات عنيفة تصدر من الداخل، سحبت البوابة المعدنية الثقيلة فكشفت عن مساحة هائلة خالية سوى من أحد أكياس التدريب على الملائمة الضخمة معلق والسيد بروس بجسده الضئيل يركله بقدمه ركلات عنيفة متتالية.. ومن ينسى تلك الركلة الجانبية؟ نعم لقد تذكرته!!

"بروس لي"

قلتها في اللحظة التي ارتطمت قدمه بالكيس، اخترقته كالقذيفة خرجت من الجهة الأخرى وتناثرت الرمال وقصاصات الجلد والقماش التي كانت تملؤه في كل مكان، يقيّط قدمه معلقة سألهني دون أن ينزلها.. ودون حتى أن يلتفت نحوه:

هناك

"من أنت؟"

"أنا؟.. أنا حسام سيد بروس!"

أنزل رجله بهدوء -أخيراً- واستدار نحوه وهو يبتسم ..

"لم أسألتك ما اسمك.. سألتني من أنت؟ من المستحيل  
أن يجعل الإنسان اسمه، ومن الصعب جداً أن يعرف  
ذاته!.. كتبت في انتظارك سيد حسام"

تقدمت نحوه بحماس، وفجأة اخترفت بطني لكتمة عنيفة  
الصقت أحشائي بعمودي الفقري لجزء من الثانية قبل أن تفادر  
وتقركني أتلوي في الامي، صرخت ملاك:

"سيد بروس! ما هذا؟"

"المعذرة يا سيد حسام نسيت أن أخبرك بأنني قد  
حضرت لك عشرة دروس بسيطة كي تعرف أكثر على  
ذاتك وتستخرج قدراتك الكامنة! والدرس الأول: أن  
تكون على استعداد.. دائمًا!"

ابراهيم عباس

مدت ملوك يدها لتساعدني على الفهوض، فقال بروس متوكلاً:

“هل جئت إلى هنا لتنماوت أمام الفتيات؟”

أشار ملوك ففتحت جانبًا، مد إلى يده أمسكت بها فسجبني نحوه بشدة، وباغتني بكلمة بيده الأخرى، ولكنني استطعت أن أمسك ذراعه في آخر لحظة فقال:

“لقد تعلمت الدرس الأول إذاً.. ممتازاً”

قالها وأطلق كوعه الصخري في وجهي فسمعت صوت فرقة غضاريف أنفي وتدفقت دمائي، صرخت ملوك معرضة:

“سيد بروس !! ماذا تفعل !!”

“هل تودين أن تدربيه بدلاً عنِّي؟”

“لا .. ولكن ..”

“إذًا لا تتدخلني !!”

مُناك

استغلت حواره القصير مع ملاك، فسددت لكتمة انتقامية إلى وجهه، كنت سريعاً جداً.. جداً! ولكن وجهه الذي كان هنا منذ لحظة اختفى فجأة، وظهرت مكانه قدم هشمت ما تبقى من أنفني وبروس يقول:

"أنا منبهر جداً من سرعتك في التعلم! الدرس الثاني:

"السرعة تسعه أعشار القوة!"

لم أكتثر بالآلام ولا بالدماء، وانقضضت عليه بشراسة ولكن ملاك بترت هجمتي بعباراتها الغاضبة:

"هذا يكفي!"

قالتها بصراحة وواصلت:

"شكراً لك سيد بروس! حسام هيا بنا نذهب!"

لن أقبل بالانسحاب! أبداً! اعترضتُ على ملاك:

"ملاك.. لن أغادر قبل أن أهزم السيد بروس لي!"

ابراهيم عباس

"تعجبني روحك القتالية يا سيد حسام! وهذا هو  
الدرس الأهم: روحك القتالية قد تضمن لك النصر قبل  
انتصارك، وقد تعلن الهزيمة قبل انهزامك! قد تضعف  
قوتك.. وقد تضعفها!"

الممت آلامي ودمائي وغضبي وتقدمنا إلى منصة في منتصف  
المستودع، أرضية معدنية براقة طولها عشرون متراً وعرضها  
عشرة أمتار تقريباً وواصل:

"يجب أن تفوح روحك القتالية بشكل يربك خصمك  
ويسبب له الرعب! الفيل أقوى من الأسد، ولكن الأسد  
يفترسه بروحه القتالية! إن لم تبادر بافتراس خصمك  
بروحك من خلال نظراتك.. فسيبادر هو بافتراسك!"

تلاشت الإضاءة في المكان وتوهجهت المنصة المعدنية عندما  
عبرناها فتحولت إلى محيط ثلاثي الأبعاد تعكس صورة جبال  
وأشجار وكوخ صيني، غير بروس تلك الخلفية بحركة يديه، لقد  
تذكرت! هذه خلفيات أكثر لعبة قتالية احترفتها في البلاي  
ستيشن!

هناك

استقر على خلفية أسطح ناطحات السحاب ثم هتف:

"ولكن!!"

قالها هصدرت فرقة مزعجة وتقدمت نحوها خطوات ثقيلة  
وظهر من الظلام عملاق يرتدي ملابس حربية تكاد تمزقها  
عضلاته المنفخة، ذلك الشئ لا يمكن أن يكون بشرياً أبداً، طوله  
الذي ينافر المتررين ونصف، بنيته الجسمانية، والأهم من ذلك  
حركته الآلية.. إنه يذكرني كثيراً بأحد المقاتلين في تلك اللعبة!

"اسمحوا لي بتقديم صديقي جاك الذي لا يكترث  
بالروح القتالية، لأنه ببساطة لا يشعر بها ولا يحتاجها،  
يجب أن تهزمه يا حسام قبل أن أتعارك أنا معك!"

أثارت تلك العبارة العملاق الآلي فضرب بقبضتيه على صدره  
وردد المكان صدىً معدنياً مزعجاً أربعيني وأرعب ملاك التي  
قالت:

"سيد بروس! أنت تعرف جيداً حساسية الموقف! هذه  
مخاطرة بحياتك حسام يستحيل أن أقبل بها!"

ابراهيم عباس

"وهل تودين أن تصارعي جاك بنفسك كي لا يتعرض  
حسامك المدلل للخدش؟"

تدخلت أنا هذه المرة:

"سأتأذل مع جاك!!"

صرخت ملاك:

"لن أسمح لك!"

أنهى السيد بروس النقاش وقال:

"حسنٌ حسنٌ، سنقرر بواسطة معركة بينكمَا! المنتصر  
هو الذي سيواجه جاك"

لم تمهدني ملاك الفرصة لأفكرة! تناولت طرف ثوبها الطويل بين  
أسنانها وشقته كي لا يعيق ركلاتها، ووقفت وقفه قتالية  
احترافية.. وظهر على الفور شريط هولوغرامي أخضر اللون  
يحيوم فوق رأسها.. وظهر نفسم الشريط المضئ فوق رأسي..

هناك

استوعبت أن هذا شريط القوة عندما أطلقت ملوك صرختها  
ولوحت بساقها بحركة دائيرية تمرّفت من خلالها عظمة خدي  
على تفاصيل كعبها العالي وقوته فتناقص ذلك الشريط فوق  
رأسني! فعلاً أنا الآن في وسط اللعبة! أواجه مقاتلة أكثر شراسة  
من القاتلة الأيرلندية ذات الدم البارد في تلك اللعبة!

ولكنني لا أتعامل مع أزرار هنا، وإنما أتعامل مع لكمات وركلات  
حية ومؤلمة! والأشد من ذلك أنني يجب أن أقاتل ملوك لكي  
أنقذها من المواجهة مع جاك! هذا أصعب موقف يمر بي منذ أن  
وصلت إلى هنا! بل أصعب موقف مر بي في حياتي! ملوك لم  
تضيع وقتها في التفكير مثل هجمت علي وكانت لي بمجموعة  
من الضربات المتالية وتناقص خطى الأخضر وتحول للون  
الأحمر دون أن أجرؤ على لسها! هصرخ السيد بروس الذي  
جلس يراقب:

"هيا أجهزي عليه بالضربة القاضية.. فجاك لا يطيق  
الانتظار!"

ابراهيم عباس

كانت حركاتها سريعة جداً مثل حركات تلك القاتلة المأجورة اللعينة في اللعبة!! نعم إنها نفس الحركات! أذكرها بتفاصيلها وتمسلسلاها! أستطيع حتى أن أستبطلها! بعد ركلة ساقها اليمنى ستدور حول نفسها وتوجه طعنة بكفها على صدري! انطلقت قبضتي لتعترض يدها فامسكتها ولوبيت رسغها لأجبرها على اللاتفاق.. سامحيني يا ملوك! أنا مضطر لذلك! أتذكر حركات المقاتل الذي يمثل شخصية بروس لي في اللعبة، أحفظ تقلباتها عن ظهر قلب في أزيار البلاي ستيشن.. هل أستطيع تطبيقها في الطبيعة؟ هناك طريقة واحدة فقط للتأكد! سأجريها! سأجريب العشر ضربات المتتالية!! بدأتها لكمتين، ركلة سفلية، ركلة علوية، ثلاثة لكمات فولاذية متتالية، ركلة سفلية دورانية أخلت بيوازنهما أعقبتها بالكمة غاصبت في جسدها اللين ورفعتها للأعلى قليلاً لأجهز عليها بالركلة الجانبية الطائرة.. لقد اختفى خط ملوك الأخضر وظهرت K.O. ثلاثة الأبعاد عملاقة في وسط الساحة، هرعت إلى ملوك التي تكومت على الأرض بعد هجمتي العنيفة، رفعتها لصدري، سعلت بقوة وكذبت على بصوت متهالك:

"حسام.. أنا بخير، حسام أرجوك وقف!! أرجوك!!"

هناك

قاطعنا السيد بروس بصفة بطيئة وهو يقول:

”براهوا لقد أثبتت أنك أقوى من الفتيات يا سيد حسام..  
هل تعلمت الدرس الرابع؟ ملاك هي نقطة ضعفك! لم  
تستطيع أن تواجهها هكادت أن تقضي عليك! لو كانت  
لديك نقطة ضعف تخسر نصف المعركة! ولو عرفها  
عدوك تخسر المعركة بأكملها! لتكسب معركتك يجب أن  
تحيل نقطة ضعفك لنقطة قوة! ونقطة قوة عدوك  
لنقطة ضعف تستخدمها لهزيمته!“

حملت ملاك إلى خارج الحلبة، قبلتها بين عينيها قبلة أنسنتها  
آلامها وفجرت بداخلي حمم الفضب:

”رح أفوز يا ملاك! مستحيل أحد يهزمني! تعرفي ليش?  
لأني رح أحارب عشانك يا ملاك!“

قلتها والتفت للحلبة صرخت:

”جالك استعد! مأسرك الليلة إلى مستودعات الخردة  
التالفة!“

أظن أن العملاق الذي تبدو عليه البلاهة التلجمية فهم عبارتي  
 وعُبّر عن غضبه منها بقفزة مرعبة نحوه، لحسن الحظ كنت  
 أسرع منه فقفزت جانباً ليسقط بثقله على الأرض، في نفس  
 اللحظة ظهرت الخطوط الخضراء فوقى وفوقه، استقلت  
 معافرتة للنهوض فقفزت عالياً وهبطت بكامل ثقلٍ بركتي على  
 ظهره، لم ينقص خطه الأخضر سوى بجزء يسير، بينما تفركت  
 ركتبي من الألم! وقف فجأة فقدت توازني وسقطت عن ظهره،  
 فأرسل قدمه الفولاذية التي غطت كامل صدري وبطني وطرحت  
 لعدة مترات إلى الخلف ورأيت نصف خطى الأخضر يتلاشى مع  
 تلك الركلة! وشعرت باهتزاز الأرض وهو يركض نحوه! ضربة  
 أخرى كهذه كفيلة بإنتهاء المعركة لصالحة، لا لن تنتهي لصالحه!  
 أبداً!! من أجل عيونك يا ملوك!! لم أحب بسرعة، تركته يقترب،  
 وفي آخر لحظة قفزت.. أو بالأحرى: طرت! تشقلبت حوله، وسقّي  
 أجزاء الثانية التي قضيتها في الهواء أجريت تحليلاً مسحياً له،  
 نقطة ضعفه هي منطقة التقاء رقبته بأكتافه، المنطقة الوحيدة  
 التي لا تغطيها الصفائح وتبرز منها الأسلامك أثناء تحركه!

هناك

تلك الأسلال هي الشئ الوحيد الذي يمكنني تمزيقه في هذا الآلي المصحف! اتخذت قراري في جزء الثانية الذي تلاه فهبطت على ظهره من الخلف! امتنعاته! تشبت برقبته وملابسه! لم يستطع أن يصل إلى بيده! تحركت بسرعة فاستجمعت قوتي وإصراري وغضبي في كفي الذي أطلقته في طعنـة كالسيف في جانب رقبته، توغلـت بين مجموعـة من القصـبان والأـسـلال المعدنية وشعرت بعظام كفي تتهشم بينها ولكنـي لم أبال! نـيـاشـتـها وانتـزـعـتـ مـجـمـوعـةـ منـهـاـ، فأـصـدـرـتـ إـحـدـىـ عـينـيـهـ فـرـقـعـةـ مـكـتـومـةـ وـتـصـاعـدـ مـنـهـاـ الدـخـانـ، وـثـارـ الثـورـ وـترـنـحـ مـنـ تـحـتـيـ وأـنـاـ مـتـشـبـتـ بـعـنـقـهـ، بـالـرـغـمـ مـنـ الـآـلـامـ الرـهـيـةـ فيـ كـفـيـ غـرـسـتـهاـ مـرـةـ أـخـرىـ فيـ رـقـبـتـهـ لـأـحـطـمـ الـمـزـيدـ مـنـ الصـفـائـحـ وـأـنـزـعـ الـمـزـيدـ مـنـ الـأـسـلـالـ، قـرـرـ الـخـرـتـيـتـ أـنـ يـلـقـيـ بـنـفـسـهـ لـلـخـلـافـ لـيـدـهـ سـنـيـ تحتـ أـطـنـانـهـ الـفـوـلـادـيـةـ، وـمـرـةـ أـخـرىـ كـسـبـتـ مـعـرـكـةـ السـرـعـةـ، فـقـفـزـتـ فيـ الـوقـتـ الـمـنـاسـبـ.

راقبـتـ جـسـدـهـ يـهـوـيـ وـأـنـاـ فيـ الـهـوـاءـ، كـانـ عـقـلـيـ يـعـملـ بـسـرـعـةـ جـعـلـتـيـ أـشـاهـدـ التـقـاصـيلـ بـالـحـرـكةـ الـبـطـيـئـةـ، هـبـطـتـ بـثـقلـيـ هـذـهـ الـمـرـةـ عـلـىـ الـمـكـانـ الـمـنـاسـبـ.. عـلـىـ نـقـطـةـ ضـعـفـهـ!

إبراهيم عباس

سقط فارتطم رأسه بالأرض وهبّطت أنا بثقلِي على القصبان  
البارزه في رقبتِه فتهشمَت وغاصَت قدمي داخلها وأصدرتُ  
صرخة بروس لي الساحقة التي شاهدتها مراراً في أفلامه،  
تلاثي الخط الأخضر من عليه وظهرت عبارة K.O. مرة أخرى.  
التفت إلى السيد بروس وقلت بتهمكم وأنا أتحسّس قبضتي التي  
تنمزق أبداً:

”جال بحاجة للكثير من قطع الفيار! ستضطر لشراء  
ثوراً آلياً جديداً سيد بروس“

”أحب حسك الفكاهي، يرفع من روحك المعنوية  
والقتالية، ولكن ذلك لا يكفي“

قالها وخلع قميصه وهو يقترب مني.. شد عضلاتِه فتبيّست  
وتقسمت ويرزت بين كل عضلتين في جسمه عضلة.. كأنه تمثال  
ئتح من البرونزا وظهر فوقه الخط الأخضر الذي لا أعلم إن  
كنت سأستطيع زحزحته بالذات وأنا بهذه الحالة المزرية بعد  
معركتين شرستين.. لا لا.. لن أنهزم معنواً سوف أتحققه! وإن  
يكن بروس لي!

هناك

عضلاته المصخرية أغرتني فانطلقت بركلة جانبية طائرة نحو صدره مباشرة، ولكن البرونز تحول فجأة إلى زئبق ففتح من أمامي بسرعة وسهولة، وعاد البرونز ليرتطم بظهرى ويطبح بي على وجهي ويلتهم جزءاً كبيراً من خطى الأخضر، وبروس يقول وكأنه قرأ أفكارى:

"هذا صحيح! الدرس الخامس: يجب أن تكون مرتنا كالزئبق، صلباً كالفولاذ.. ولكنك لن تتصر على في معركة السرعة.. أبداً"

سامطيق الحركات المتناوبة التي أحفظها عن ظهر قلب، بدأتها.. وندمت! تقادها بكل سهولة.. كان يعرف توقيتها بدقة، ضاعت كلها في الهواء، وفي اللحظة التي أخفقت فيها ركلتي الدورانية في إصابة وجهه، سدد إلى لكتمة مدمرة، حاولت عبثاً صدّها ولكنه لف ذراعه بمهارة حول ذراعي وكاد أن يكسر كوعي وهو يعيق حركتها فبادرته بلكتمة من يدي الأخرى، كانت خطوة حمقاء لأنه ثبّت يدي الأخرى أيضاً بنفس الطريقة فأصبحت مكبل الحركة ووجهي أمام وجهه مباشرة، نظر إلى وأنا أحاول إخفاء آلامي:

ابراهيم عباس

“أنت تقلد حركاتي يا حسام! الدرس السادس.. من الحماقة أن تتوقع هزيمة عدوك وأنت تقلده، وأنت تتبع حركاته وأسلوبه، لا بد أن تفاجئه بأسلوبك أنت، لا بد أن تبتكر ألف حركة في كل مرة يكتشف هو إحدى حركاتك!”

هوى على أنفي الذي لا زال ينزع بجبهته فتفجرت المزيد من الدماء ولم يمهلي لأستوعب آلامي فهو بجبهته مرة أخرى لتحطم صف أسنانني. تحول شريطي الأخضر للون الأحمر.. هم ليبني المعركة بالضربة القاضية بجبهته، ولكنني استخدمت ضعفي وقوته لقلب الموازين! مع انطلاقه رأسه نحو أنفي وفمي يصبت دمائي وأسنانني على وجهه بقوة فتفاجأ، وأفلت يدي ليفرك عينيه التي غطتها دمائي وارتقطمت بها أسنانني، لم أمهله ليستوعب الموقف فقفزت عليه ووجهت مسكنتي الخطافية نحو عينيه مباشرة، أحسست بكرتي بؤبؤيه الرخوين تحت سبابتي وإيهامي، هذا هو الشئ الوحيد الرخو في جسمه، كدت أن أفقاهمها وأنا أصرخ:

“استسلم يا بروس لي! استسلم!”

هناك

اعتقد أنه من الجنون أن أطالب شخصاً كبروس لي بالاستسلام.. خطه الأخضر تناقص مع ضغطي على عينيه، ولكنه استطاع أن يسدد ضربة إلى يدي اليمنى أجبرتني أن أفلت إحدى عينيه، ولكن تلك الحركة جعلتني أتشبث أكثر بعينيه الأخرى وازداد ضغط إبهامي على بؤبؤه.. هذا البؤبؤ هو أملاني الوحيد في هزيمته، بالذات وشريطي لم يبق فيه سوى شعرة واحدة ستختفى بمجرد أن يلمسني.. وهذا الذي حصل.. صرخ صرخته الشهيره وهو يضرب ذراعي المتقبضة بعينيه تراجع نصف خطوة للخلف واندفع بركلته الجانبية نحو صدرني تماماً بالرغم من أنه لم يفتح عينيه بعد، حاولت تفادي تلك الركلة، ولكنني لم أكن أكثر حظاً من وسادة التمررين.. طرت للخلف فتلاشى خطى الأخضر وظهرت عبارة K.O. معلنة انتصار بروس لي.. قام السيد بروس ولا زال يفرك عينيه من شدة الألم، هبت إلى ملائكة لتفقد ما تبقى من ملامح وجهي وعظامي.. فقال السيد بروس بنبرة لا تخلو من الغبطة وهو يمد يده ليساعدني على النهوض:

”لقد أدهشتني فعلاً يا حسام!“

ابراهيم عباس

ابتسمت ابتسامة ساخرة تفتقر إلى صف أستاني الأمامي وأنا  
أقول:

"لقد دفعت كل عظمة في جسمي ثمناً باهظاً لتحقيق  
تلك الدهشة.. وفي النهاية هُزِمت هزيمة نكراة"

"ومن قال أنك هُزِمت؟"

"سأل هذه الـ O.K. القبيحة"

"ولكن ابتسامتك الساخرة تثبت العكس.."

"أتمنى أن تكون ابتسامتي ابتسامة نصر حقيقة المرة  
القادمة.. وبوجود أستاني"

"الابتسامة الساخرة سلاح ذو حدين، تتصرك إذا  
انهزمت، وتهزمك إذا انتصرت! اسمع يا حسام.. المعركة  
كانت معركتك بامتياز! لقد أخطأت أنت لأنك لم تتفقا  
عييني مباشرة!"

"اسمح لي أن أستبطط الدرس السادس: من البلاهة أن  
تفوت أي فرصة!"

هناك

"من البلاهة أن تتعشم أنك ستحظى بأكثر من فرصة! أنت كنت تقاتلني بصفتي بروس لي، بكل ما يعنيه بروس لي في وجدانك.. مقاتل لا يُقهر، وبطل لم تكن تحلم أن تلقاه؛ لو أنك اعتبرتني خصماً حقيقياً لما ترددت في اقتلاع عيني وكسب المعركة، وأنا أعترف أنني قمت باستغلال هذه النقطة لأبعد حد، كنت متأكداً أنك ستتردد.. لولا ذلك لكنت استسلمت على الفور! وهنا يأتي الدرس السابع"

نظر إلى بعد أن توقف عن فرك عينيه اللتين تحول بياضهما للون أحمر دام بسببي:

"الدرس السابع هو أن تنهي المعركة بأقل خسائر ممكنة! أكثر معركة رابحة هي التي تتصرّف فيها دون أن تخوضها! فالعدو يتلاشى إن حولته إلى صديق! وأكثر معركة خاسرة هي التي تفقد فيها كل شيء حتى لو انتصرت فيها! فعدوك قد يدمرك وإن استطعت هزيمته!"

"ومع ذلك لا بد أن نستعد لكل معركة.. بكل قوة!"

إبراهيم عباس

"الانتصار ليس للأقوى.. وإنما للأجدر! لا أستطيع  
حصر المرات التي واجهت فيها من هم أقوى مني..  
وهرزموهم.. لقد هزمتني اليوم يا حسام!"

"سأعتبر هذه مجاملة من ملك الفنون القتالية"

"أنا غادرت عالمكم قبل حتى أن أبدأ مشواري.. قبل أن  
أحقق معشار ما أطمح إليه!"

"ومع ذلك تظل أنت الأسطورة يا سيد بروس لي!"

"هل تعلم من أكثر شخص أدين له بالفضل في كل هذا؟"

"هل تلمع لإيب مان؟ الأسطورة الذي بدأ بتعليمك فنون  
القتال؟"

"تعرف عنـي الكثير يا حسام، ولكن الفضل الحقيقي  
يعود فيـ المقام الأول إلى من جعلـني أقرر الذهاب إلى  
إـيب مـان وأهـتم بالـفنـونـ القـتـاليةـ"

هناك

قتلني الفضول لأعرف من هو ذلك العظيم الذي ألهم بروس لي،  
ولكنه قبل أن يفصح عنه ألقى بدرسه الثامن:

“اسمع يا حسام، كل عظيم اكتشف نفسه في لحظة..  
لحظة تجسدت في كلمة، أو نغمة، أو ضحكة، أو دمعة،  
أو نظرة.. العظمة الكامنة في داخلنا تستيقظ في  
لحظة.. من يستحق تلك العظمة فعلاً لا يسمح لتلك  
اللحظة بأن تمر دون أن تغير حياته.. حياتي كلها تغيرت  
في اللحظة التي تلقيت فيها أول صفة”

“صفعة ١٩٢”

نعم.. صفة تلقيتها وأنا صبي لم أتجاوز الثالثة عشرة،  
لم استطع أن أدفع عن نفسي، لم أستطع أن أردها،  
وأمضيت بقية حياتي أعمل جاهداً كي لا ألتقي صفة  
أخرى”

عقلاني لا يكاد يستوعب أن هناك من يستطيع صفع بروس لي  
الرجل الحديدى الذى لا يُقهَر.. بترت حديثي مع نفسي عندما  
قال:

“أنا مدين لذلك الوغد الذى صفعنى”

إبراهيم عباس

"الموهوب دائمًا تلقاها الصفعات، فتقوم بتجييرها إن  
فشل في تدميرها.. لقد فلتني الكثير من الصفعات،  
ولن أسمح بتفويت المزيد! استوعبت الدرس الثامن سيد  
بروس سأصبح مقاتلاً لا يُشق له غبار!"

"الفنون القتالية ليست بالقوة والحركات والمصلات،  
الفنون القتالية بالسيطرة على طاقة الجسد والروح  
وأطلاقها غريزياً بحكمة وتحكم! أن يتحدث جسدي  
بنفس المرونة والمطلاقة والتلقائية التي يتتحدث بها  
لسانك!"

"هل هذا هو الدرس التاسع؟"

"الدرس التاسع يا حسام هو أن هذه الدروس وهذه  
الفنون ليست قتالية فحسب.. وإنما حياتية! هل تتذكر  
كم مرة في حياتك خضت معارك جسدية؟"

"مرتين أو ثلاثة أثناء الطيش الدراسي"

هناك

”من الحماقة أن تتعلم القتال من أجل معارك  
صبيانية! المترنح الحقيقي هو مترنح الحياة! يجب أن  
تخوضه بروحك القتالية الفعلية وتحول تلك الفنون إلى  
مهارات حياتية تواجه فيها ظروفك مهما باختلافها ففنون  
القتال فلسفه تستخدم فيها كل طاقاتك وإمكانياتك  
لتتعرف على ذاتك وتتمكن من السيطرة عليها والتعبير  
عنها والتعامل بها مع مصاعب حياتك“

تصاعد الحماس في عروضي مع ارتفاع منسوبات الأدرينالين،  
فأجنبته بكل ثقة:

”أعتقد أنه آن الأوان لظهور أسطورة قتالية جديدة“  
”أتمنى أن تتجدد تلك الأسطورة في خلق المزيد من  
الأساطير! من الأذانية أن تقيس نجاحك بما تحققه  
أنت، النجاح الحقيقي يكمن في المدى الذي سيبلغه  
تأثيرك، والأشخاص الذين ستفير حياتهم؟“

”هذا هو الدرس العاشر والأهم“

إبراهيم عباس

أخذت بيد ملاك، ابتسم لي السيد بروس وودعني قائلاً:

"العاشر، وليس الأخير.. سوف تكتشف باقي الدروس

"بنفسك يا حسام"

غادرنا المستودع وعادت أصداء ركلات بروس لي الجانبية تهز

المكان، ودروسه القتالية تهز عزيمتي ووجوداني.

هناك

(9)

إلا أمري

إبراهيم عبادى

هناك

الموت هو أكثر الفاز الحياة غموضاً.. وأكثرها واقعية في نفس الوقت، الموت هو أكبر دافع للحياة! فنحن نتشبث بها بكل عناد.. خوفاً منه! وهو أيضاً أكبر عائق في الحياة! فنحن لا نستمتع بِمغامراتنا فيها.. خشية منه! الآن أيقنت أن كل ذلك مجرد هاجس فطري، الرعب من الموت غريرة كأي غريرة حيوانية متصلة في أعماقنا فقط ليستمر نسلنا! ومن يعترض منكم على كلامي فليتخيل نفسه في تجربة كتجربتي حيث يعتبر الموت هو الأمل الوحيد في العودة للحياة، عندها سيصبح غاية يسعى لتحقيقها! الموت أيها السادة ليس إلا مرحلة حتمية، تخشاها لأننا نجهلها، تُنسينا ما قبلها فور مرورنا بها!

"آيسكريم"

أو بالأصح: "آيتكريم" ..

هكذا كسرت حاجز الصمت ونحن في طريق العودة حيث كانت ملاك تقود السيارة وقد غطت عينيها المتورمة من لكماتي بنظارتها السوداء، بينما ألقىت عظام جسدي المحطمة على الكرسي بجوارها، وتناولت دفترى الذى لم يتمزق أثناء المعركة العنيفة لحسن الحظ!

حاولت أن أدون دروس بروس لي بالأصبع التي لا أزال أمتلك القليل من القدرة على تحريكها في يدي اليسرى، وبخط ينافسني تهالكا.. تعجبت ملاك من عبارتي فسألتني:

"آيسكريم؟ نفسك في آيسكريم؟"

"أيه، عثان آلام أشاني!"

ضحكت وهي تحرف بالسيارة نحو الكورنيش حيث تراصت المقاهي ذات الطراز الأوروبي العتيق وقالت متهدّمة:

"ولا يهمك.. دحين أثوف لك أحلى محل آيتكمريم!!"

دخلنا أحد تلك المقاهي، قُص وألصق من قلب ميلانو في أواسط القرن الماضي، بالإضافة إلى الطاولات والكراسي الخشبية، تراصت أحواض الآيسكريم بشكل نصف دائري ووقفت في متنصفها هناء تفاجأت عندما دخلنا، ظنت أنها تفاجأت من آثار المعارك العنيفة التي خضناها، ولكنني اكتشفت أنها كانت دهشة السعادة لوجودي أنا بالذات، وذلك عندما هتفت بحماس:

"سيد حسام شخصياً هنا؟ لا أصدق!"

هناك

من الأشياء التي افتقدها في عالمي.. رؤية الفتيات ذوات الجمال المحدود والمعقول! أفقدهن بشدة! فمنذ أن طبت قدمي هنا وأنا أصعق بجمال كل فتاة أراها! أنهكت مشاعري باللومضات المتالية! جاملتها بابتسمة ومزحة عابرة:

أنا حثام حاف.. بدون (ثيد) وبدون (شخصياً) حثام  
وبثـ! بلحـمه وثـحـمه وعـظـامـه المـكـثـرـةـ

لا أعلم إن كانت الحسناء الميلانية قد تبسمت بسبب دعابتي أم بسبب لدغتي، ولكنني متأكد أن استظرافي لم يرق أبداً لملائكة هنركتي بعد أن كانت تسندني على كتفها ليختل توازنـي قليلاً وأتكـئـ علىـ النـافـذـةـ الزـاجـاجـيةـ الـبارـادـةـ التيـ تـفـوحـ منـ خـلـفـهاـ روـائـحـ الفـواـكهـ وـجـمـيعـ نـكـهـاتـ الآـيـسـكـرـيمـ التيـ يـمـكـنـ أنـ تـخـطـرـ بـالـبـالـ!ـ سـحـقاـ لـعـلـبةـ الـبـاسـكـنـ روـينـزـ التيـ كـنـتـ أـدـفعـ عـلـيـهـاـ ثـروـةـ مـكـافـآـتـيـ وـلـاـ تـلـبـثـ أـقـتـرـيـتـ منـيـ بـاـبـتـسـامـةـ وـدـوـدـةـ وـقـالـتـ:

تحبـ كـاسـةـ ولـلـاـ بـسـكـوـتـةـ؟ـ

في هذه اللحظة بالذات أنا بأمس الحاجة إلى طقم أسنانى، أظن أنهم أطلقوا على (السن) هذا المسمى الدقيق لارتباطه الوثيق بحرف (السين) الذى يستحيل علمياً أن يتم نطقه في غياب طقم الأسنان الأمامي؛ المشكلة أننى لملاحظ هذه الجزئية الحرجة إلا عندما حاولت عبئاً أن أجبر حرف السن أن يخرج من بين لثى ولسانى وأنا أقول:

لَا كاثة طبعاً! بلا ث بتكونة عثان أتشان!

جاءت المسكينة لحبس ضحكتها مع منظر أسنانى المتهشمة وتدفقت تلك الضحكة المكبوبة في دماء وجهها وأجبرته على ارتداء وشاحه الخمرى رغمأ عن سماره؛ ولكن ملاك لم تحبس ضحكتها فأطلقتها بأعلى صوتها، انتقاماً لغيرتها مني وقالت:

”ثويله تتكيلة على ذوقك.. وحططيها في كاثة“

جلست بجوارها، تلاشت غيرتها وبدأت تتفحص يدي المصابة وضلوعي وركبتي بمهارة وقالت بدھشة ورعب:

”عظامك انكسرت من جداً! معقول منت حاسس بالالم؟“

هناك

"طبعاً حاسس بشوية آلام"

"شوية آلام؟ اللي في مكانك مستحيل يستحمل الألم!"

"طب قولي ماشاء الله!)"

قطعتنا حسناً الآيسكريم وهي تضع أمامي كأس.. أو بالأصح قدح.. أو بتعبير أكثر دقة: طنجرة الآيسكريم! وعاء زجاجي ازدحمت بداخله كرات الآيسكريم، وزادحمت النكهات الرائعة خارجه، تزيّنه تشكيلة من التوت بأنواعه، راسييري، بلوييري، بلاكييري.. وكل شئ ينتهي بكلمة (بيري)! غاصت في زوبعة من الكريمة السحابية، أنسنت أنفي رائحة الدماء وأعادت الحياة لأصابع المهمشة، ففطمت في تلك الطنجرة ولم التقط أنفاسي إلا بعد أن تلاشت آخر حبة بيري!

"رج ألفي الموعد مع السيد لوكانس والدكتور غينزو"

"ليش؟"

"ليش؟! منت قادر توقف وتقول ليش؟!"

"عادي! نسيتي كيف اتعافيت بسرعة المرة اللي فاتت؟"

أبراهيم عباس

"المرة اللي فاتت كانت شوية رضوض، دحين عظامك  
كلها مكسورة وعضلاتك متمزقة، تحتاج ثلاثة أيام على  
الأقل عشان تتعافى وترتاح!"

"أصلاً أنا ما بقى لي هنا غير يومين!"

تغير وجه ملاك عندما قلتها، اكتهرا!.. وقالت باقتضاب..

"عشان كذا لازم ت تعالج بسرعة! يلا نرجع"

عدنا إلى جناحي، تعكزت على ملاك طوال الرحلة، إلى أن  
خطستي برفق في المسبح المصغر بعد أن ضبطت بعض  
الإعدادات لتتحول مياهه إلى مياه علاجية ساخنة مشبعة  
بالأمصال والمعادن تتدفق بقوة وتغور كالحمم من مضخاته، جهزت  
لي بعد ذلك ملابسي الجديدة وتخلىت من ملابس بروس لي  
التي تمزقت وتلطخت بدماي. استلقيت على السرير بعد تلك  
القطيعة وبدأت ملاك في فحص كل عضلة في جسمي وإعادتها  
إلى وضعها، عظام يدي المتهشمة، ضلوعي المحطم، أسنانني التي  
ابتلاعت بعضها وتركت بعضها للسيد بروس كتذكار، أنفي.. أو ما  
تبقى منه، وجنتي التي حملت توقيع كمب ملاك الأنيق!

هناك

ولكن جسدي كان يتمايل للشفاء بسرعة خارقة، أكاد أشعر  
بعظامي وهي تلائم مع ضفطات أنامل ملاك، شعرت بأطراف  
أسناني الجديدة التي بدأت بالظهور مكان أسناني المحطمة.  
ناولتني مجموعة من الكرات الشفافة.. كريستالات منمنة ملونة:

"افتح فمك يا حسام"

"مخدرات؟"

"تقريباً.. رح تريحك من الآلام وكمان فيها شوية  
بروتينات وثايامينات هامة"

ابتلاعها مع رشفة من القهوة المثلجة التي أعدتها لي، وقبل أن  
 تستقر تلك الكرات في معدتي.. دوى الانفجار!

انفجار مفاجئ مكتوم.. انهار على إثره كل شئ من حولنا، ولكن  
عملي كان أسرع من الانفجار والانهييار. لم أهتم بتعرضي  
للخطر، فأنا لا أزال أعتبر هذا المكان مجرد حلم يحبسني  
والموت فيه غاية كي أعود لعالمي.. لأختي.. وأمي، ولكنني مع  
ذلك أصبحت بالهلع من أجل ملاك!

قبل أن ينقضي جزء الثانية الأول كنت قد أحطتها بين ذراعي لأحميها من الشظايا، القباب الكريستالية تحطمـت وتحولـت لخناجر حادة تتـساقـط فوق رؤوسـنا مـباشرـةً شـعرـت بـبعـضـها يـنـغـرسـ في ظـهـريـ وأـنـدـفـعـ بـمـلـاكـ بـكـلـ قـوـتـيـ نحوـ الشـرـفةـ محـطـمـاً زـجاـجـهاـ. فـقـدـتـ تـواـزـنـيـ والـبـرـجـ يـنـهـارـ، وـانـزـلـقـتـ عـلـىـ أـرـضـيـةـ الشـرـفةـ الزـجاـجـيـةـ التـيـ بـدـأـتـ تـهـشـمـ هـيـ أـيـضاًـ، وـقـبـلـ أـنـ لـحـافـتـهاـ أـلـقـيـتـ نـظـرـةـ خـاطـفـةـ عـلـىـ أـكـثـرـ نـقـطـةـ يـقـتـرـبـ فـيـهاـ المـجـرـىـ المـائـىـ مـنـ الطـرـيقـ الصـخـرـىـ، ثـيـثـ رـكـبـتـيـ وـأـحـكـمـتـ طـوـقـ ذـرـاعـيـ حـوـلـ مـلـاكـ بـحـيـثـ أـحـتـويـ جـسـمـهـاـ بـقـدـرـ الإـمـكـانـ، وـانـطـلـقـتـ فـيـ الـهـوـاءـ نـحـوـ المـجـرـىـ المـائـىـ؛ اـسـتـدـرـتـ نـصـفـ اـسـتـدـارـةـ لـيـتـلـقـيـ ظـهـرـيـ السـقـطـةـ بـدـلـاًـ مـنـهـاـ، لـأـعـلـمـ إـنـ كـانـ قـفـزـتـيـ سـتوـصـلـنـاـ لـلـمـاءـ أـمـ سـتـحـطـمـنـاـ عـلـىـ الصـخـورـ. أـجـلـبـنـيـ سـطـحـ المـجـرـىـ المـائـىـ الـذـيـ اـخـتـرـقـتـ بـقـوـةـ مـنـ ذـلـكـ الـاـرـتـفـاعـ الشـاهـقـ، لـمـ تـتـجـعـ المـيـاهـ فـيـ اـمـتـاصـاـنـ كـامـلـ الصـدـمـةـ فـارـتـطـمـ جـسـدـيـ بـكـلـ عـنـفـ بـقـاعـهـ الصـخـرـىـ.. الـآنـ أـشـعـرـ بـالـأـلـمـ.. هـذـهـ الـمـرـةـ أـلـمـ حـقـيـقـيـ لـاـ يـطـاقـ! تـهـشـمـتـ عـظـامـيـ الـمـتـبـقـيةـ، تـفـلـفـلـتـ الـقـطـعـ الزـجاـجـيـ فـيـ ظـهـرـيـ، وـتـدـفـقـتـ المـيـاهـ لـتـعـلـاـ رـئـتيـ، وـاـظـلـمـتـ الدـنـيـاـ مـرـةـ أـخـرىـ.. أـمـامـيـ. وـظـهـرـتـ هـيـ مـرـةـ أـخـرىـ..

هناك

لم أَرَ غيرها في الظلام.. أمي! رأيتها تعتابني:

"حسام! أنا مو قلت لك ترجع بدرى عشان توصلنى  
الزواج؟ الساعة قربت إلثعاشرة!"

"يا ماما إنتِ عارفة زحمة الطريق و.."

"زحمة الطريق وللا لعب البليوت والبلاي ستيشن!!  
يللا بسرعة يا دوب الحق الزفة!"

بدأت صورتها بالتلاشي وهي تقول:

"دائماً تتأخر على يا حسام.. دائماً"

تدفق الهواء في صدري، ليطرد الموت ويعيد الحياة، ليقطع ذلك  
الحلم الذي أخذني لذكرياتي المفقودة، ويعيدني إلى هذا العالم!  
نفحة هواء بثتها ملائكة من رئتيها لمباشرة.. جعلتني أسلح  
بشدة وأنا أستعيد وعيي..

"حسام؟ حسام! الحمد لله! الحمد لله!"

"أنا فين؟ رجعت لعالمي وللا لسا؟"

لم تجبني، فقط ضممتني لصدرها بقوه وانهارت ياكية..

قلبتني على بطني كي أواصل سعالى وأتخلص من المياه في رئتي بينما جالت هي بيدها على ظهري تحاول إخراج قطع الزجاج، ولكنها كانت ترزلق بسبب المياه والدماء فما لبشت أن بدأت يانزاعها بواسطة أنيابها وأضراسها وأنا أتلوي من شدة الألم. لأول مرة أرى الظلام في هذا العالم، تلبدت السماء بغيوم حالكة انتقمت من ضياء الأيام الماضية، وانهالت الأمطار فوقنا بعد أن عجزت وريقات الشجرة التي وسقتي ملاك تحتها عن حمايتنا منها، صم الرعد آذاناً، شاركه هدير طائرة نفاثة ظهرت في الأفق وشققت طريقها بسرعة بين تكتلات السحب نحونا فلوحت لها ملاك بقوة، دارت المحرّكات المثبتة على جناحيها نصف دورة لتصبح بوضع رأسى وتسمح لها بالهبوط عمودياً، حملتني ملاك بين ذراعيها، من يتخيّل أن ملاكاً بهذه الرقة بمقدورها أن تحمل جثي بكل سهولة، فُتح باب الطائرة وبرزت منه عدة عربات، وعادت الطائرة للتحليق فوراً ما اجتازتها ملاك بحملها. لم يكن هناك قائد للطائرة، كانت تُدار آلية فقط ظهرت صورة السيد لوکاس على الشاشة الأمامية فابتدرته ملاك وصوتها لم يتخلص بعد من آثار بكتائها:

”خشيت أن لا تتعثر علينا سيد لوکاس“

هناك

"حمدًا لله على سلامتكم، ستصلون إلى المقر الجديد

"بعد ثلاث دقائق"

لم تمضِ تلك الدقائق حتى بربت في الأفق جزيرة صغيرة يتوسطها مبني زجاجي من طابقين استقرت الطائرة في مكانها المخصص فنزلنا تسللني ملائكة، تقدم إلينا السيد لوكلس الإفريقي الوقور الذي يرتدي بدلة أنيقة بريطة عنق حمراء، ونظارة سميكية، تقدم إلينا مرحباً وتناول ذراعي ليسننني مع ملوك وقال بلهجته الأمريكية:

"سيد حسام، مرحباً بك في مقرك الجديد!"

ذلك الرجل.. رأيته من قبل لا يذكرني بسميرته وشيبه ووقاره بأحد أشهر الممثلين في هوليوود. توجهنا إلى غرفة مكتظة بالأجهزة، كأنها غرفة عمليات في أحد أحدث المستشفيات، وضعاني على السرير في وسطها وقال السيد لوكلس:

"أعددت لك برنامجاً تدريبياً متكاملاً ولكن استجدة

"بعض الظروف المطارئة"

ابراهيم عباس

أجابته ملاك بنفس التوتر:

"حسام في حاجة للعلاج الآن"

"وهذا الذي سنبدأ به"

نزع سترقي وثبتت عدداً من المحسسات في مختلف أنحاء جسمي  
وتحبب ذراعي بإبرة ثبت فيها أنبوياً متفرعاً لأكثر من اسطوانة،  
شهقت ملاك عندما لاحظتها وقالت:

"سيد لوکاس.. هذه.."

"نعم هذه جرعات مختلفة لمحفزات إنزيمية، وخلايا  
أولية، وعوازل عصبية"

"لا لا سيد لوکاس، أرجوك جسم حسام لن يتحمل كل  
هذا وهو بهذه الحالة!!"

"بل سأتحمل!"

لا أعلم إن كنت قلتها عناداً أم تحرزاً للمزيد من المخاطر التي  
تحتاج إلى جسدٍ يرفض نقل شعور الألم إلى دماغه.

هُنّاك

لقد كانت تلك الجرعة بعد ذاتها مؤلمة.. جداً! شعرت بالحمم  
تتدفق من ذراعي عبر عروقي إلى يافي جسمي، لم أستطع  
كتمان صرخاتي وملاك تعتصر كفي وتبكي علي. فقدت وعيي  
مرة أخرى، كم تمنيت أن لا أفيق إلا بعد انقضاء اليومين كي  
أعود إلى عاليـ إن كنت فعلاً سأعود إليهـ وأطمئن على أمي  
وأختي.

فتحت عيني واعتنقت في جلستي فجأة، لا أشعر بأية آلام، كل ما  
أشعر به هو أنني نمت لفترة طويلة جداً، كانت كفيلة بشفائي  
 تماماً، أو أن العوازل العصبية نجحت في إلغاء إشارات الألم التي  
تصدرها كل قطعة في جسدي.. تجاوزت البوابة الزجاجية إلى  
ساحة شاسعة تتوسطها عشرات الشاشات ثلاثية الأبعاد وملاك  
والسيد لوکاس يراقبانها بكل اهتمام وتتوتر، التفتت إلى ملاك  
 فهولت نحوه تحاول أن تلتفتني قبل أن أقع:

"حسام! مستحيل! كيف صحيت؟"

أنزل السيد لوکاس نظارته السميكة على أنفه ليتأكد مما تراه  
عيناه:

إبراهيم عباس

ـ مدحش جداً، توقعت أن لا تستيقظ قبل عدة ساعات  
ـ أخرى!ـ

وأصلت مشيتي المترنحة من أثر الدوار الذي يعصف بي، لم أشا  
ـ أن أثقل كاهل ملاك بالاتكاء عليها مرة أخرى:

ـ أتمنى أن لا يكون قد فاتني الكثير أشاء نومتي الثقيلةـ  
ـ نومتك الثقيلة ما تجاوزت ثلاثة ساعات يا حسام، كان  
ـ المفروض تمام أكثر!ـ

قالتها ملاك ثم وصلت حديثها للسيد لوکاس الذي قاطعه أنا  
ـ بدخولي:

ـ سيد لوکاس، حسام تعرض للقتل أكثر من مرة، وكل  
ـ مرة أعنف من التي قبلها! لا أعلم متى وأين ستكون  
ـ المحاولة القادمة، حتى السيد بروس كاد أن يقتله  
ـ باستخدام أحد رجاله الآليين!

ـ كان بروس سيتدخل لإنقاذ حسام لو تعرضت حياته  
ـ للخطر من قبل الآلي، ولكنني اتفق معك، فحسام يواجه  
ـ خطراً حقيقياً!

هناك

لقد توقعت تدخلهم لم أكن أتخيل أن يصل بهم الأمر  
لتغيير البرج بأكمله! كنت أتمنى أن ألغي البرنامج  
التدريبي للحفاظ على حياة حسام، ولكن طائرتك  
وصلت في الوقت المناسب لحسن الحظ!“

لم يرفع السيد لوكانس عينيه عن الشاشات التي أمامه، ولم يخفِ  
نبرة التوتر المتضاعدة في صوته وهو يجيب ملاك:

“هم لا يجرؤون على أعمال بهذا العنف، ولكنهم  
استعنوا بعقلية لا تعرف بأي منطق أو قوانين  
لتحقيق غايتهم في أسرع وقت!“

“حسام يجب أن يبقى هنا إلى أن تنتهي المدة!“

“أخش أنهم لم يتركوا لنا هذا الخيار أيضاً“

قالها ومرر يده أمام الشاشات فظهرت عليها صورتها! صورة  
آخر إنسانة يمكن أن أتخيل وجودها هنا... صورة.. أمي!

إبراهيم عباس

كانت تجلس مكبلة على كرسي تبكي، ترتدي نفس العباءة التي كانت ترتديها في آخر مرة رأيتها فيها.. آخر حدث عشته في حياتي كان لحظة توصيل أمي لحفلة الزفاف، لا أذكر أي شئ بعدها؛ عادت تلك اللحظة بتفاصيلها لتملا ذاكرتي، فجرا السبت، الأول من شهر نوفمبر عام ألفين وأربعين عشر.. تأخرت في إيصال أمي إلى قاعة أماسي للأفراح في حي الجامعة.. وبعدها.. لا شئ! فقط وجدت نفسي هنا!

كانت أمي تبكي ويقف خلفها رجل توحى ملامحه وهيئته إلى شيئين: أنه مختل عقلياً، وفي نفس الوقت لا يغير الحياة أي اهتماماً يرتدي بدلة تضارب ألوانها الفاقعة، وللطخ وجهه بمساحيق بيضاء وشفاهه بلون أحمر قبيح وصبغ شعره بلون فسفوري مستقرز.. يحمل مسدساً ضخماً يضغط به على خد أمي وبعد:

"ثمانية وتسعون - تسعة وتسعون - مائة - مائة وواحد  
- مائة واثنان.."

صرخت بأعلى صوتي وكأنه سيسمعني:

"لو لمستها حاقطعلك يا كلب (لا)"

هناك

وأصل الحقير عدده باستهتار:

"مائة وثلاثة - مائة وأربعة - هيا يا حسام بسرعة..  
مائة وخمسة - ماما في انتظارك يا حسام - مائة وستة  
- إذا لم تأت إلى البرج المركزي قبل أن أصل في العد  
إلى ألف ومائة وثلاثة عشر فاضطر آسفاً إلى  
تشويهها بشقب هنا في رأسها - مائة وواحد وخمسون -  
مائة وستة وخمسون - لكن لا تقلق سأحرص على  
تنظيم الدم بعد أن أطلق عليها النار لا تتمنى أنها  
يجب أن تحافظ على مظهرها اللائق في حفلة الزفاف  
- مائتان وخمسة عشر - مائتان وتسعين عشر"

قال السيد لو كاس بتوتر:

"اللعنة! اللعنة لا"

صرخت ملائكة:

"هذا فخ حقير!.. مستحيل تكون أم حسام!"

إبراهيم عباس

لا مجال للشقة في ملاك ولا في أي مخلوق على وجه الأرض  
عندما تتعرض أمي للخطر، صرخت في ملاك:

"إِنْ يَدْرِيكَ أُمِّي كَانَتْ مَعَاهُ حَسَنٌ أَخْرَى لَحْظَةً وَبِدِيهِي  
الَّذِي جَاءَنِي هُنَا جَاءَهَا كَمَانٌ"

"حسام صدقتي هذا فخ بس عشان بيقتلوك؟"

"إِنْ يَضْمَنْ لِي إِنْكَ إِنْتِ مَا تَكُونِي الْفَخُ كُلُّهُ إِلَّا أُمِّي؟"

التفتُّ للسيد لوكاوس وسألته:

"سيد لوكاوس، أرجوك ساعدني! يجب أن أذهب إليه!"

"على جشي يا حسام؟"

قالتها ملاك وهي تعترضني، لم آبه بها أبداً وأنا أدفعها عن طريقي:

"ولا شيء ييفرق معانيا الآن.. ولا حتى جشك، مستعد  
أقتل أي أحد عشان أمي.."

هناك

قلتها وأنا أعنيها فعلاً، قاطعتنا ضحكات المهرج المستفرزة من الشاشة، أخرج ساعة فضية معلقة بسلسلة من جيب سترته وقال بشكل ساخر وهو ينظر إليها:

أووه نسيت أنني يجب أن الحق بحفلتي التكربية  
لصالح جمعية الأيتام! حسنٌ ساختصر العد من أجل  
الأيتام المساكين! أربعينَة وخمسة عشر - أربعينَة  
وستة عشر ..

قالها وأطلق طلاقتين في الهواء فارتعدت أمي وانفجرت أنا!

ـ سيد لوکاس ـ

تحرك السيد لوکاس بسرعة فادخل مجموعة من الأرقام السرية على اللوحة أمامه فتحركت المساحة التي نقف عليها بما عليها وهبطت بيسطه نحو ساحة أخرى أكبر، ولكنها مكتظة، سيارات، دراجات نارية، أسلحة، والأهم من ذلك كله تلك البدلة السوداء المقتعنة المحملة.. لقد تذكرت الآن! ولا أكاد أصدق أنني أرى البطل الذي أحفظ أفلاماً عن ظهر قلب تجسد واقعاً أمامي!

"سيد حسام، أنا متأكد أنك تذكرت صاحب هذا المقر.."ـ  
 هنا أحتفظ بكل أسراره، لأنّ سف ليس لدينا الوقت  
 لأطلعك على التفاصيل، حاولت أن أبث في ذاكرتك ما  
 أمكنني من مهارات واستراتيجيات فتالية أثناء نومك،  
 كل شئ بعد ذلك سيعتمد على حدسك وحظك فقط..ـ  
 بالذات مع خصم لا يُتبأ بما يفعله كهذا المهرج؟"

انطلقت نحو البدلة ارتديتها بسرعة، وحاولت استرجاع كل ما  
 أعرفه عن صاحبها من ذاكرتي ومما أضافه السيد لوكاس إلى  
 دماغي..ـ

### كيف أصل إليه؟

سألت السيد لوكاس، فردت علي ملاك التي ارتدت بدورها بدلة  
 سوداء شبّيهة ببدلتي، لا تظهر سوى نصف وجهها وشعرها  
 النحاسي الذي انساب على ظهرها من أسفل قناعها. نادتني  
 وهي تصعد على مقنعة طائرة نفاثة صغيرة متوجهة هجومي عليها  
 وتهديدي لها بالقتل منذ لحظات:

"يللا يا حسام مافيش وقت!"

هناك

لم أتردد لحظة فلتحقت بها، وارتفع الجدار أمامنا كاشفاً عن ممر كهفي مضاء، انطلقنا فيه بسرعة، وصلنا لنهايته في لحظة انحرفنا قليلاً للأعلى فانفرجت أمامنا بوابة أخرى تدفقت عبرها مياه المحيط لتغمرنا للحظات قبل أن نخرج من قلب المياه كالقذيفة، انطلقنا بسرعة هائلة نحو البرج المركزي مباشرة.. افتربت ملاك من مدخل البرج دون أن تهدئ من سرعتها، ارتطمنا بالأرض بعنف، انفصلت مقدمة الطائرة وجناحاتها وذيلها وسارت على إطاراتها العريضة، لم تكن تلك مجرد طائرة، كانت سيارة مجهزة للطيران، انطلقت ملاك بالسيارة داخل المبني المركزي الذي بدا كثيراً خالياً بعد أن كان مكتظاً بالحياة وتجاهلت الواجهة الزجاجية التي حطمتها أثناء عبورها إلى داخل المبني.. كيف سنجد ذلك اللعين؟ كيف؟..

أعلن لنا عن وجوده بطريقتين أطلقاهما نحونا مباشرة فارتدى عن جسم السيارة المصفحة. كان المهرج يجلس في قمة التمثال، أقصد تمثالي العملاق الذي يتوسط ساحة المبني، كان يجلس على يده الممدودة نحو شعار حرف الـ H بين السبابية والإبهام، يمسك بمسدس العملاق ويأرجع ساقيه بشكل مستفز ويصرخ بأعلى صوته:

"تسعماء وخمسة وثمانون - ألف ومائة وثلاثة عشر..  
 أوجه وصلت يا حسام؟ يا للخسارة.. لحسن حظك أنتي  
 رجل نبيل وأحترم وعدوي جداً، ولسوء الحظ سوف  
 أناخر على حفلة الأيتام التكيرية، هيا تعال لكي أقتلك  
 بسرعة وألحق بحفلتي)"

مدت يدي إلى لوحة التحكم ووجدت ضالتي بسهولة،  
 انشطرت السيارة إلى نصفين، تحولت إلى دراجتين ناريتين  
 نفاثتين أنا أقود إحداها، والثانية مع ملاك، انطلقت بسرعة نحو  
 التمثال، ارتطمت بحافة قدمه ووصلت دراجتي انطلاقها على  
 ساقه، بينما توجهت ملاك نحو المصعد بسرعة، تتبعني احناءات  
 التمثال كي لا يختل توازني وأسقطه، ساعدتني إطارات الدراجة  
 النارية التي تشبّث بالتمثال حتى ونحن نطلق في مسار شبه  
 عمودي، وصلت إلى كتفه وانطلقت على طول ذراعه الممدودة  
 متوجهاً نحو المهرج الذي أخذ يردد أغنية مستقرة بصوته المزعج.

"تيري ري ري ريته، حسام يجي منه، يجي الساعة ستة،  
 راكب وللا ماشي؟! راكب بسكيلته.."

هناك

أطلق المهرج طلقة واحدة من مسدسه دون أن يتوقف عن الغناء،  
أصابت هدفها بدقة تحت إطار الدراجة الأمامي ليفلت تشبثه  
بجسم التمثال وتحرف الدراجة على سطحه الأملس، ففرزت  
منها في آخر لحظة قبل أن تنزلق وتتسقط وتتحطم، تقدمت من  
المهرج الذي أصبح يهز سيقانه بحماس أكبر وبهتاف ساخراً:

هيا هيا بسرعة.. يمكنك أن تصلك في الوقت المحدد،  
بالعزيمة والإصرار يا عزيزي يمكنك صنع المعجزات..

هيا !!

أخرج ساعته من جيب سترته وقال:

رائع في الوقت المحدد بالضبط !! كم أحترم مواعيدهك  
الحقيقة !!

ووجأه تهشم نوافذ المبنى الضخم، بصاروخين أحدثا فجوة  
هائلة وتبعتهما طائرة هيلوكبتر عبرت الفجوة واتجهت نحو المهرج  
وامتدت منها سلسلة لتعلق بها بينما برع من تأذتها عملاق  
مقنع وجه إلى رشاشاً آلية ليعيقني عن التقدم والقبض على

سيده ..

إبراهيم عباس

في نفس اللحظة دوى صوت انفجار في قاعدة التمثال العملاق،  
فبدأ يتهاوى، لا يوجد أسفله ممر مائي هذه المرة!

"حسااااام"

صرخت ملاك وهي ترتفع بالمصدع بمحاذاتي بسرعة، ومرة أخرى كنت أنا والموت في سباق مع الزمن! مدلت يدي لحزامي، وأسعفني حديسي وحظي وما شحنه السيد نوكاس في ذاكرتي فالتقطت الخطاف وأطلقته بكل قوتي نحو المصدع فأحدث ثقباً في زجاجه وتشبت في حافته، شعرت بقوة شد رهيبة عندما سحبني المثلث المعدني المثبت في الخطاف من وسطي، كاد أن يقصم عمودي الفقري، تعلقت بالمصدع المنطلق بسرعة إلى الأعلى.. إلى سطح المبنى حيث توقفت طائرة المهرج وقفز هو منها وقال بلا مبالاة ويدون أن يلتفت:

"العبوا مع صديقي قليلاً بينما أقتل والدته..!"

قفز من الطائرة أربعة عمالقة يحمل كل منهم رشاشاً يصوبه إلى صدرى.. هتفت ملاك:

"الحق المهرج يا حسام وسيبهم علي!"

هناك

قالتها وقفزت قفزة بهلوانية تخطتنى وهي تتسلق في الهواء  
وتهبط بينهم وتنهال بساقيها وذراعيها على صدورهم وأعناقهم،  
تخطيتهم أنا بقفزة وتبغنى أحدهم برصاصاته أصابتي رصاصة  
أو رصاصتين، لا أذكر، لا يهم، المهم أن الحق بأمي قبل ذلك  
اللعين، انطلقت خلفه متوجهاً للألم الذي اعتدت عليه، كان يقف  
على السطح بقرب حافة المبنى، وأمامه تجلس أمي، مكللة غارقة  
في دموعها، يصوب أحد مسدساته القبيحة نحو رأسها، والأخر  
نحو أنا ويقول بشكل تمثيلي:

”أمك أهم شيء في حياتك لا تسمح لأي أحد بأن يمسها  
بسوء يا حسام.. أبداً.. مهما كلف الأمر! آآآاه.. لقد  
تذكرت والدتي، كم اشتقت إليها وإلى كعكة اليقطين  
التي كانت تعدادها لي دائماً.. ولكنني لا أحب اليقطين!  
كنت أعيش الألعاب النارية والمفرقعات أكثر بكثير من  
اليقطين، وكانت دائماً تمنعني من اللعب بها بحججة  
الخوف علي.. مسكينة لم تنج من انفجار القنبلة التي  
نسيئتها تحت سريرها، أقسم أنني لم أقصد إيداعها،  
لكنها ارتاحت من آلام ظهرها!“

مسح دمعة وهمية من عينيه قبل أن يياوغتني:

ـ ثم ما هذا يا حسام؟ ألا تخجل من نفسك وأنت ترتدي هذه الملابس الضيقة المضحكة أمام والدتك؟ـ

ـ رتب هندام سترته، وعدل وضع الوردة القبيحة المثبتة عليها:

ـ هل أوهمنوك بأن الأحمق المدلل الذي كان يرتدي هذا الذي قبلك هو بالفعل بطل خارق؟ لا لا يا عزيزي.. لم يكن سوى مهرج آخرًا مثلي تماماً؛ مهمتنا تسليم الناس في سيرك الحياة مع تحفظي على ذوقه القبيح في اختيار الأزياء. لقد كان يتقمص دور البطولة بينما كان دافعه الانتقام فقط؛ الانتقام لمقتله والديه على أيدي الصعاليك. أمي ماتت بين يدي بسبب السرطان، لم أستطع تحمل تكاليف علاجها.. كيف أنتقم لها؟ من هو المجرم الحقيقي؟ من يضطر للسرقة كي يعيش؟ أم من يتسبب في خلق مجتمع مكتظ بالفقراء والمحاجين والسارقين؟ وراء كل سارق وجائع، هناك مجرم حقيقي يتعم في ثرائه.. وصديفك صاحب هذه البذلة كان واحداً من هؤلاء المجرمين، يداري إجرامه بمحاربة صغار اللصوص ليلاً، ليحتفي مع كبارهم نهاراًـ

هناك

اكتست ثبرته جدية مفاجئة وهو يهتف:

”هيا اخلع هذا القناع المضحك بسرعة، أعلم أنه مبطن  
بخوذة واقية من الرصاص.. أريد أن تستمتع الوالدة  
بمنتظر دماغك عندما تبعثره رصاصتي! أم تفضل  
الموت بطريقة أخرى؟ تفضل أن تقفز من حافة المبنى..  
من على ارتفاع ثلاثة آلاف متراً لا لا.. هذه سقطة  
طويلة ومؤلمة جداً! ما رأيك في أن تطلق والدتك عليك  
النار؟ آه هذه فكرة رائعة.. بالذات وأن قلبي الحنون لا  
يتحمل أن أقتل طفلاً أمام عيني والدته؟“

خلعت قناعي بينما مد المهرج الحقير المسدس إلى أمي لتناوله  
بيديها المكبلتين، دون أن يزبح المسدس الآخر عن صدغها:

”هيا يا حالة أم حسام، ضعي حداً لظهور ابنك كي لا  
يضيع على نفسه فرصة العودة للبيت كي يعتني بأخته  
مرا، أعظم الأمهات هي التي تضحي بكل شئ من أجل  
أبنائها، أمي الرائعة دهستها الشاحنة وهي تدفعني أنا  
ودراجتي بعيداً عن الطريق؟“

ابراهيم عباس

كان يتحدث وهو يثبت سبابة أمي على الزناد، ونجيبها يعلو  
 وارتعادتها تشتت، أمسك بيدها كي يثبتها ويصوب فوهة المسدس  
 نحو رأسي، استعن بيده الثانية ليمسك بكلتا كفيها، وهذا الذي  
 كنت أحتج له، ثانية واحدة فقط يبعد فيها فوهة المسدس عن  
 صدغ أمي، أزاحت برأسها جانباً في اللحظة التي انطلقت فيها  
 الرصاصية نحو جبتي، ظلت أذني فقدت عيني عندما احتكت  
 بي الرصاصية ورسمت خطأ دامياً بجانب رأسي، اجتررت الأمتار  
 التي تفصلنا بقفزة واحدة، لم تسعفه لإطلاق النار على والدي،  
 ولا علىي. وضع كل قوتي وغضبي في اصطدامتي به، حاول عبثاً  
 أن يتثبت بالهواء وانطلقت ضحكاته المجنونة وطلقاته وهو يهوي  
 إلى قاع البرج. ساعدت أمي المسكينة على النهوض، احتضنتها  
 بشدة قبل أن أتأمل عينيها من خلف دموعها:

ـ أخيراً لقيتك يا أمي (أخيراً.. تطمني رح أخرجك من  
 هنا، رح نرجع لعلنا)ـ

رفعت عينها نحوي وقالت بصوت أغرفه البكاء:

ـ حسام ما تتخيل قد إيش قلقنا عليك أنا ومرام، إنت  
 عارف إنه عشان نرجع لحياتنا، لازم نموت هنا، لو  
 يهمك رضاي تعال نرجع مع بعضـ

ملاك

أمسكت يدي بسديها المكبلتين، وكدت أن أقفز معها، ولكن عاطفتي التي تفجرت برؤيتي لأمي غابت عني للحظات أنها تبدو أكثر طولاً! كما أنتي لم أسمعها تنطق اسم مرام في حياتها قط، دائمًا تناديها مرمر.. وفوق كل هذا لاحظت شبح ابتسامة ظافرة على وجهها، يستحيل أن تبتسم في موقف كهذا! إنه فعلًا فخ!

لم يقاوم ضحكته، ليتنى مت قبل أن أرى ذلك المنظراً أمي وهي تصيح ضحكة المهرج المقيته، خلع قناعه، لقد كان هو فعلًا والذي سقط قبل قليل كان مجرد معاون يرتدي زيه، المفاجأة أصابتني بالشلل فدفعني وسقط معي؛ انفرد وشاح بدلتي فخفف من سرعة سقوطي ولكن لا توجد فرصة للنجاة هذه المرة، ليس من هذا الارتفاع! أيقنت بالهلاك وأنا أرى اقتراب الأرض مني إلى أن بربت خلفي طائرة هيلوكبتر.. إنها ملاك! قضت على العمالقة وأنت لتقذني، أطفأت مروحة الطائرة لتسقط سقطاً حرًا وتتحقق بي.

حاولت الاقتراب من باب الطائرة حيث تقف ملاك مادة يدها، وما إن أمسكت بي حتى سحبته بقوة وأعادت تشغيل مراوح الطائرة، لتعاود الطيران، أو بالأحرى لتخفف الارتطام بالأرض.

ابراهيم عباس

لم تكن المسافة المتبقية كافية للارتفاع، ولكنها كانت بالكاد تكفي  
أن لا نُسحق داخل الطائرة عند اصطدامها بالأرض، تحطم ذيل  
الطائرة واندفعت على الممر الصخري وشقراوات مراوحها تجز  
الشجر وتتحت الصخر وتصدر الشرر.. إلى أن توقفت تماماً.

انتزعت جسد ملاك بالقوة من بين حطام الحديد قبل أن تصل  
إليها النيران التي بدأت تلتهم الطائرة، خرجت أحملها على  
ذراعي، ملابسنا وجلوتنا تمزقت؛ أنفاسها الضعيفة تقول أنها لا  
تزال على قيد الحياة وأن المعركة لن تزداد إلا شراسة!

هناك

(10)

## بين الفضاء والأرض

ابراهيم عباس

هناك

أيامي هنا شارت على الانتهاء، ليست أيام.. فما تبقى  
 لا يعدو ساعات، وربما دقائق! ولكن كل دقيقة تمر بي هنا تحمل  
 من الأحداث ما يغير أقطاب كياني، وهذا درس مهم جداً! فقد  
 نعيش اليوم يوماً.. وقد نعيشه دهراً.. وقد لا نعيشه أبداً، الأيام  
 التي لا تضيف لنا تجارب جديدة هي اختصار لأعمارنا، تجعلنا  
 نشيخ.. دون أن نكبر.

أنا الآن مصاب بحالة رعب من العودة إلى حياتي السابقة! رهاب  
 من التحول مرة أخرى للحسام القديم، لا أعني الشكل والجسم  
 أبداً، فالوسامة والعضلات لا تعود كونها كماليات هامشية  
 مقارنة بالعقلية والإرادة. أخشى أن أعود مرة أخرى للكسل  
 المقيت والروتين المميت! أكتب هذه الكلمات وأنا أتأمل هذا القلم  
 العجيب الأنique، هل يعقل أن يكون هو السبب في تدفق هذا  
 السبيل من عقلي ووجوداني؟ هل أستطيع أن أحفظ به عندما  
 أعود لعالمي؟ هل سيفي القلم البلاستيكي الجاف بالغرض؟  
 أعدك أيها القلم أن لا أتوقف عن الكتابة أبداً طالما نالت أنا ملي  
 ما أكتب به

ابراهيم عباس

وأعدك أن لا أنسى ملوك، ولا ابتسامتها التي تسخر من كل شئ وهي بين أحضاني. كم أنت عجيبة يا ملوك! تبتسمين و أنت بهذه الحالة؟ حملتها على ذراعي، جثة محطمة متمزقة محترقة بالكلاد نجت من انفجار الهليكوبتر، ولكنها لا تزال تنفس.. وتبتسم!

تبتسم فقط لأنها في حضني .. سعيدة بالموت، إن كان الموت يجمعنا؛ وهذا هو التعريف الأدق للحب! حبيبك هو من تقتلك الحياة بعيداً عنه، وتحيا وإن مت بين أحضانه. هذا التعريف ينطبق على أنا أيضاً، أعرف أنني أذوب عشقاً فيها، أعرف أنني لا أتخيل حياتي بدونها، ليس بسبب جمالها، فقط لأنها هي! أتمنى أن تعود معي لعلمي، ولا يهمني كيف سيكون شكلها، فقط أريد أن أعيش معها .. وبعدها!

حملتها وهمت على وجهي، لا يهمني ما سيحدث، المهم أن تكون ملوك معي في لحظاتي الأخيرة هنا، برزت طائرة السيد لوکاس من بين المباني وهبطت أمامنا مباشرة، صعدنا الطائرة وانطلقت بنا يقودها الطيار الآلي، وظهرت صورة السيد لوکاس على الشاشة وقال بكل توتر:

هناك

"سيد حسام، أنا سعيد أننا وصلنا إليكم في الوقت المناسب؟"

"سيد لوکاس؟ نحن في طريقنا إلى القاعدة؟"

"القاعدة؟ لا أعتقد أنه بقي منها أي شيء، لقد هربنا بأعجوبة قبل أن يصلوا إليها، لا بد وأنهم قد دمروها الآن؟"

"من هم؟ عن من تتكلّم سيد لوکاس؟"

قبل أن يجيبني انحرفت بنا الطائرة فجأة بزاوية حادة أنيقت بنا عن مقاعdenا، فمر من أمامنا مباشرة خطانا من الضوء الملهب شعرنا بحرارتها بالرغم من أنها لم يلمسا الطائرة، ارتفع أزيز الإندار داخل الطائرة، أعدت ملاك لقاعدتها وأحکمت ربط حزامها وحزامي، فانحرفت الطائرة مرة أخرى بزاوية عامودية متوجهة للأعلى لتفادي خطوط الأشعة المحرقة، ورأيتها تمر من أمامنا، أطبق طائرة.. نعم أطبق طائرة!! تتحرك بسرعة عالية وبمناورة يستعجل أن تجاريها طائرتنا! سبقتنا إحداها بسهولة وحامت حول نفسها لتواجهنا، وأطلقت أشعتها نحونا مباشرة!

انحشرت جميع الأحداث في لحظة واحدة! رأيت جسمًا لامعًا مثلثًا ينطلق نحو الطبق الطائر ويُشطره إلى نصفين، وفي نفس اللحظة ارتطمت بنا طائرة أخرى لتبعينا عن مسار الأشعة القاتلة. دارت معركة خاطفة أمامنا هاجمت الطائرة النفاقة التي اصطدمت بنا مجموعة من الأطباق الطائرة بأشعة أطلقتها من أجنحتها، وانطلق ذلك القاطع المثلث مرة أخرى ليُمزق المزيد من الأطباق، ومع تزايد الأطباق الطائرة اندفعت طائرة غريبة، حمراء وصفراء من قلب المياه وانقضت بدورها تدمر الأطباق الطائرة بقاطعها وأشعتها وصواريخها، انتهت المعركة بسرعة، وانطلق صوت قائد تلك الطائرة الغريبة في طائرتنا:

”لقد تم إسقاط جميع الأطباق، لقد تمت برمجة الطيار الآلي لتتبعونا إلى قاعدة علوم الفضاء“

انطلقت طائرتنا خلفهم، وأبى فكي أن يعود مكانه من الذهول، فكل ما رأيته في حياتي كوم، وما حصل قبل قليل كوم آخر تماماً! وصلنا لقاعدة علوم الفضاء التي استقرت على أحد الجبال، انكشف الدرع الفولاذي العملاق الذي يغطي منصة الهبوط، وهبطت طائرتنا، كان الدكتور غينزو في استقبالنا:

هناك

”سيد حسام، سيدة ملاك، مرحباً بكم في مركز أبحاث  
علوم الفضاء“

قالها بلغة عربية فصحي فاستدركت ملاك وقالت باللغة  
اليابانية:

”申し訳ありません私たちは日本語を学ぶ機  
会を持っていませんでした!“

أجابها الدكتور غينزو ملطفاً الأجواء:

”لا عليكِ فنحن نجيد التحدث بالعربية، أتمنى أن  
تكونوا بخير“

كانت الإجابة واضحة جداً، وكل خلية في أجسادنا تؤكّد المكس.  
تعنّاه إلى ساحة اكتظت بالمتخصصين في أبحاث الفضاء انهم كل  
 منهم في الشاشة التي أمامه، ولكنهم توّقفوا وانحنوا لنا بكل احترام فور دخولنا قبل أن ياذن لهم الدكتور غينزو بمواصلة العمل. ظهرت على الشاشة المركزية تصاميم لطبق طائر، يحمل رجلاً آلياً عملاقاً.. لقد عرفته! وكيف لا أعرفه؟!

إبراهيم عباس

لقد عشت معه مغامراته في الفضاء قبل حتى أن أجيد الكلام! لقد صنمت ملوك هذا العالم بناء على أحلامي أنا، مهما بلغت فانتازيتها، وبطريقة تحول شففي بتلك الأحلام إلى دروس راسخة في وجداني! ولكن ما الذي - أو بالأحرى - من الذي استطاع التدخل في تلك الأحلام وأحالها إلى كوابيس فقط ليقضي على<sup>٥</sup> ليقتلني هنا كي أعود إلى عالمي<sup>٦</sup> دخل الساحة شاب وفتاة صافحان بحرارة، ذكرهما جيداً، هل يعقل أن أقابلهما على أرض الواقع؟ واجهت صعوبة شديدة في استيعاب فكرة مقابلة عظماء من التاريخ، ولكن فكرة مقابلة شخصيات كارتونية في الواقع فذلك أقرب للجنون، بل هو الجنون بعينه!<sup>٧</sup> نعم هي نفسها تلك الفتاة، إحدى فاتنات المانجا ولكنها حقيقة، من لحم ودم! ارتبكت وهي تمد يدها لتصافحني، شهقت شهقة خفيفة عندما استقرت عينها على عيني.. فلاحظ ذلك الدكتور غينزو وقال:

”نعم.. إنه يشبهه كثيراً.. يشبه ابني“

قالها وتظاهر بفرك عينيه ليختفي دمعته قبل أن تُفْتَضَح. أما الفتاة فقد تركت دمعتها تنساب وهي تقول:

”كأنني أراه أمامي“

هناك

لم يرق الموقف كثيراً لملوك، فأنهت تلك اللحظة وهي تقول:  
 لا أعتقد أن الوقت في صالحنا أبداً، أخبرونا مالذي  
 يجري؟

رد عليها الدكتور غينزو بنبرة حلقة:

أحدهم استطاع الحصول على الملفات السرية التي  
 تحيوي تصاميم قوات جيوش الكواكب التي حاربناها،  
 وقام ببناء أسطول شرس دمر قاعدة السيد لوكانس،  
 وهي في طريقها إلى هنا للقضاء على حسام!

عقب الفتى بنفس النيرة المتوتة:

“يستحيل أن نصمد أمامهم بدون الآليّاً”

ظهرت تصاميم أمامنا وواصل الدكتور غينزو:

“أملنا الوحيد هو أن يسيطر حسام على الآليّ، لقد  
 تلقى برنامجاً تدريبياً مكثفاً يؤهله لخوض تجربة بهذه  
 مرة أخرى أؤكد: شتان بين الرسوم الكرتونية المحصورة  
 بالخطوط والألوان والإمكانيات المحدودة قبل أربعة عقود، وبين  
 ما أراه هنا من تفاصيل. التصاميم التي رأيتها كانت تظهر رجلاً  
 آلياً يعمل بتقنيات غاية في التطور والتعقيد، لم نشغل أنفسنا  
 بمحاولة فهمها أشاء طفولتنا.

إبراهيم عباس

تقنيات أتت من عوالم أخرى تفصلنا عنها فجوة علمية تتجاوز مئات السنين. الكوكب الذي عاد إليه أميره ليحيييه بعد أن اختفت الإشعاعات القاتلة عن سطحه كان قد بلغ أوج التطور، تكنولوجياً ومدنياً، كوكب مسالم كوكبهم لم يكن بحاجة لجيش دفاعي، فاكتفوا بتطوير هذا الآلي، الذي كان يشكل رمزاً للحماية أكثر من كونه سلاحاً للفتك. لم يتميز الآلي بتصميمه الذي يمكن صورة محارب نبيل تتقدّر ملامحه قوة وهيبة، ما كان يميّزه بالفعل هو التكنولوجيا التي تضمنتها آلاتِه. لقد أمضى مركز الأبحاث سنين عدة في دراسة تلك التكنولوجيا وبناء نسخة مطابقة لآلي قبل أن يعود به الأمير إلى كوكبه.

شاهدت مجموعة من الأفلام الافتراضية التي تصور ذلك الكوكب ب التقنياته وأنماطه المعيشية، أكاد أجن، كيف لفيلم كارتوني أن يكون له إسقاط بهذه الدقة والواقعية المذهلة، لم أستطع أن أحبس فضولي فسألت الدكتور غينزو:

”المعذرة يا دكتور، أنا أذكرك جيداً، رأيت كل هذا قبل أن أجáوز السادسة من عمري، ولكن..“

”ولكن كرسوم متحركة أليس كذلك؟“

هناك

"نعم، أقصد أن فكرة وجود آلي عملاق يحمل جميع هذه الأسلحة وكائنات فضائية تعيش على كواكب أخرى وتهاجم كوكب الأرض بوحشتها الآلية.. كل هذه فانتازيا، كيف لها أن تتحقق؟"

"اسمع يا بني، لو انتقل شخص من القرن الماضي إلى زمنكم فسيصاب بصدمة مماثلة، سيعتبر ما يراه محاكاة فنتازية لما تعرضه قصص الخيال العلمي، ثم من قال لك أنهم كائنات فضائية؟ ألم تلاحظ أثناء متابعتك للمسلسل أن أشكالهم بشريّة، لا تشوبها سوى فروق جينية طفيفة كاستطالة الأذن أو الجمجمة أو تغير لون البشرة؟ جميعها طفرات جينية ضرورية لتأقلمهم على الكواكب التي سكنوها بعد أن غادرو كوكب الأرض"

"يا إلهي هل تقصد أن.."

"نعم، هم من البشر، يحملون نفس صفاتنا ودمائنا وأحماضنا النووية، أمير ذلك الكوكب كان ينتحل شخصية ابني دون أن يشك أحد في كونه زائر من كوكب آخر"

ابراهيم عباس

تدخلت الفتاة وقالت بنبرة حزينة:

"دماؤه تجري في عروقي، لقد أنقذ حياتي"

واصل السيد غينزو كلامه الذي لن أعتبره سوى إمعاناً في الخيال:

"لقد غادروا الأرض بعد موت أعظم ملوكها قبل ثلاثة آلاف سنة وتعرض الحضارة التي بناها للنهم، فقرر نخبة العلماء أن يحملوا جميع الأسرار العلمية وينطلقوا بها عبر المجرات الدودية التي اكتشفوها في الفضاء إلى أكثر الكواكب شبهًا بكوكب الأرض، ومن هناك انطلقت الحضارة من جديد وانتشرت في عدة كواكب أخرى، ولكن الطمع البشري كان سيد الموقف مرة أخرى، فدمرت جميع تلك الحضارات، وعادوا لتدمير كوكب الأرض!"

هالني ما سمعته، تفسير منطقي بالرغم من جنونه! استمرت دهشتي في وثيره متصاعدة وأنا أطلع على ما تركه الأمير من معلومات عن كوكبه والحضارة التي انتقلت من الأرض إلى باقي أرجاء الكون.

هناك

أمضيت ساعات وأنا أدرس أدق تفاصيل الآلي وتصميماته، تعتمد التكنولوجيا التي صنع منها على إعادة توجيه قوى الطبيعة بدون الإضرار بها، على العكس تماماً من جميع الأسلحة الفتاكـة الأخرى، هذا الآلي لا يعتمد على أي قنابل أو منتجـات (رأسـه متوجـ بـقرون مـكونـة من الـذهب المـقوـي بالـنحـاس، عـبـارة عن مـخـزن هـائل لـلـشـحنـات الكـهـرـيـائـية يـمـتصـ الـإـلـكـتـرـوـنـات السـاـكـنة من الفـضـاء الـمـحيـط ويـخـزـنـها ليـعـيد تـقـرـيفـها فيـ صـاعـقة تـحـمـلـ مـلاـيـنـ القـولـاتـ كـفـيـلة بـتـدـمـيرـ أـعـتـىـ الـآـلـيـاتـ! نفسـ الـمـبـداـ يـنـطـبـقـ عـلـىـ اـمـتـصـاصـ بـخـارـ المـاءـ الـعـالـقـ فـيـ الـهـوـاءـ وـتـسـخـينـةـ لـدـرـجـاتـ حـرـارـةـ تـجاـوزـ عـدـدـ الـأـلـافـ مـئـوـيةـ مـعـ الـحـفـاظـ عـلـىـ حـالـتـهـ الـمـسـائـلـةـ بـتـقـنـيـةـ التـلـاحـمـ الـجـزـئـيـ وـإـطـلاقـهـ عـبـرـ الرـشاـشـ الصـاهـرـ لـإـذـابـةـ وـتـفـكـيكـ أيـ جـسـمـ تـقـرـيبـاـ. أماـ التـكـنـوـلـوـجـياـ الـأـكـثـرـ تـطـورـاـ هيـ تـكـنـوـلـوـجـياـ تـخـزـنـ وـإـعادـةـ تـوـجـيهـ طـاقـةـ الـجـاذـبـيـةـ الـكـلـيـةـ، بـالـذـاتـ الـجـاذـبـيـةـ الـأـرـضـيـةـ، حـيـثـ يـسـلـطـ الـآـلـيـ تـلـكـ الطـاقـةـ الـتـيـ يـسـتـطـعـ تـخـزـنـهـاـ كـلـمـاـ تـعـرـضـ لـقـوـةـ جـاذـبـيـةـ مـنـ أيـ نـوـعـ وـيـعـيدـ إـطـلاقـهـ مـنـ صـدـرـهـ كـإـشـعـاعـاتـ تـعـكـسـ مـفـعـولـ الـجـاذـبـيـةـ، أوـ يـعـيدـ إـدـارـتهاـ دـاخـلـيـاـ ليـقـلـصـ مـنـ تـأـثـيرـ الـجـاذـبـيـةـ الـأـرـضـيـةـ عـلـىـ الـأـطـنـانـ الـمـعدـنـيـةـ الـتـيـ يـحـمـلـهـاـ أـثـاءـ قـفـزـهـ وـإـطـلاقـهـ فـيـ الـفـضـاءـ.

إبراهيم عباس

محركات الآلي عبارة عن مفاعلات نووية صغيرة، لا تعتمد على الانشطار النووي، وإنما على الالتحام النووي؛ وقدوها هو أكثر الغازات وفرة في الطبيعة: النيتروجين. يطلق المحرك ذرات الهيدروجين لتلتلام بذرات النيتروجين وتكون الأكسجين مع كمية هائلة من الطاقة في عملية مستوحاة من التفاعلات النووية في قلب النجوم. باقي أسلحة الآلي تعتمد على القواطع المكونة من معادن معالجة بشكل يجعلها أكثر صلابة وحدة من أي معدن آخر، صُقلت منها الشفرات المسننة حول قبضته والأطباق الدوارة على جناحي مركته بالإضافة إلى أطراف الشفرة المزدوجة المثبتة على كفيه. باختصار ذلك الآلي هو السلاح الدفاعي الكامل.

صعقتي المعلومات التي تلقيتها من الدكتور غينزو، يا إلهي كنت أظن الرسوم المتحركة مجرد خيال ترفيهي، لم أتصور يوماً أن يحمل الآلي هذا الكم من العلوم والتكنولوجيا الحقيقية. هتف أحد أعضاء مركز الأبحاث في قلق شديد:

"إنهم يقتربون يا دكتور!"

هناك

نقل الصورة من شاشته إلى الشاشة الرئيسية فظهر سرب من  
النقاالت اللامعة تنطلق بسرعة في السماء!

"سألقفهم درساً"

قالها الفتى وفأدار مسرعاً، تبعته زميلته.. أما الدكتور غينزو فقد  
أخذنا إلى قاعة أخرى وهو يقول:

"لقد أعددنا لك كل شئ سيد حسام!"

فعلاً.. نفس الذي كان يرتديه الأمير! نفس الخوذة ركضت  
بسريعة في نفس الممر، أعرفه تماماً، أحفظه عن ظهر قلب، لكم  
حلمت أن أنزلق عبر ذلك الباب الجانبي الصغير وأستقر على  
الدراجة النقاثة وأنطلق بسرعة وأرى الطريق ينقسم أمامي إلى  
نصفين، وأقفز من الدراجة التي تواصل طريقها عبر الممر  
وأجهض على مقعد الآلي.. رأيته أسفل مني، يالضياعاته!  
يالهيبيته! صُعقت وأنا أطير في الهواء متوجه نحوه، دققت في  
تفاصيله، وأكررها مرة ثانية وثالثة ورابعة: ما رأيناه في الكرتون  
ليس إلا تصور مبسط جداً.

ابراهیم عباس

أنا هنا داخل مركبة فضائية حقيقية، كل قطعة فيها مقسمة لجزئيات وتفاصيل معقدة، حتى قرونه التي كنت أظنها مجرد سبيكة مخروطية مصقوله، رأيت تفاصيلها وصفائحها وساميرها.

جلس على المهد الذي احتواني وأضعاع الشاشات الافتراضية  
أمامي وداخل خوذتي، التي تحولت لقناة تواصل بيسي وبيـن  
الآليات من حولي.. أحكمت قبضتي على عصا التحكم، أضـاء  
الممر أمامي وانفتحت البوابة ظهر الشلال الاصطناعي سحبـت  
العصـا فانزلق الآلي وانطلق بسرعة لا تصاهيها سوى سرعة  
دقـات قلبي الذي كاد أن يتضجر من فرط الإثارة!

انطلق من فوق سلاح طيران أزرق وأحمر بعقارب على جانبيه،  
لقد تذكرته! ظهرت صورة ملاك في الشاشة أمامي، كانت  
تدرني زيًّا أحمر، وخوذة تحمل حرف الـM.. نفس الخوذة  
والزي الذي كانت ترتديه أخت الأمير:

حسام، لازم نلتحقهم بأقصى سرعة!»

۱۰

انطلقت خلفها وظهرت في الأفق آثار معركة ملتهبة، أسطول من  
أطباق العدو يقاتلهم الفتى بنفاثة المزدوجة والفتاة بمركبتها  
الملاحية؛ لحقت بهم ملاك وبدأوا يُسقطون الأطباق بالعشرات،  
ضغطت على الزر الثاني من مجموعة الأزرار عن يميني.. أتذكره  
جيداً، لم أتمالك نفسي وأنا أصرخ:

"الصحن الدواوين"

كنت أتساءل لماذا يردد الأمير اسم كل سلاح يطلقه، الإجابة كانت في تلك النشوة التي شعرت بها عندما دار القرصان وانطلاقاً يتبعان المسار الذي تخيلته بالضبط، فشطرت مجموعة من الأطباق التعيسة قبل أن تعود ل مكانها. كما توقيع الخودة هي أهم أداة تحكم في الآلي؛ لا يمكن السيطرة على آلية بهذا التعقيد ببرونة باستخدام الأزرار ولوحة التحكم فقط! سرت موجة من الرعب في صفوف أطباق العدو فور ظهوري، تجمعوا لمواجهةي وانطلقت أشعthem نحوه، ترتطم بجسد الآلي دون أن يتأثر، أذيت نصفهم بالرشاش الصاهري، والباقين تلاشوا بصعقة من رعد الفضاء وتساقطت أشلاءهم في مياه المحيط. هذه ليست معركة بل مجرد نزهة، لا أفهم لماذا يصرّون على تضييع الوقت مع هذه الأطباق.

إبراهيم عباس

انتهت النزهة عندما انقضت على أذرع معدنية من قلب المحيط  
والتقت حول جسم الآلي وبدأت تسحبه بقوة نحو المياه، مددت  
يدي لا شعورياً للمقبض في أعلى الكبينة وساحتها، فانزلق بي  
المقدد وانطلق بسرعة نحو كابينة أخرى في رأس الآلي:

"هيا... انطلق!"

اندفع الآلي العملاق، انفصل عن المركبة، لم تصمد تلك الأذرع  
 أمام انتلاقته، ولكنها عادت مرة أخرى لتكبل ساق الآلي  
 وتسحبه ليترطم بقوة بماء المحيط، حاولت الإفلات ولكن ذلك  
 الشئ يملك عشرات الأذرع التي التفت حولي بإحكام، تبيّن  
 معالم الوحش تحت الماء، عبارة عن قرص معدني تبرز من  
 حوافه تلك الأذرع وشئ يشبه الرأس. أطلقت الرزنة المزدوجة  
 فمزقت بعضها، وتمزقت البقية بالقاطع الملاحي، حيث غاصت  
 الفتاة لتعاونتي على ذلك المسلح الذي لا أدرى متى ستنتهي  
 أذرعه! أطلقت قبضتي اللوبية نحوه فسحب رأسه وأذرعه  
 بسرعة واختفت داخل درعه المصفح فارتد عنه اللولب الساحق،  
 وعاد الوحش مرة أخرى للهجوم، حاولت السيطرة على توازني  
 تحت الماء انطلقت نحو الوحش وانطلقت الفتاة بمحاذاتي  
 فالتجم الآلي بالسلاح الملاحي، وأصبحت حركتي أسرع وأسهل!

هناك

المسألة مسألة سرعة مع مناورات هذا الوحش، مد أذرعه لتلقي ذراع الآلي ورقبته وتسحبنا للأعمق، وفي هذه المرة أحكمت قبضتي على أحد أذرعه لامنه من العودة وأطلقت الرزوة المزدوجة نحو الوحش، لم يستطع إغلاق درعه بالكامل هذه المرة بسبب ذراعه التي أمسكتها فانطلق قوس الرزوة المزدوجة في تلك الفتاحة الضيقية وأتبعته الفتاة بالقاطع الملاحي عندما اتسعت تلك الفتاحة قليلاً ليقتلع رأس الوحش، تخلصنا من أذرعه وسحبتي الفتاة معها من الأعمق قبل أن يدوي الانفجار، اندفعنا من المياه مع الانفجار، ظهرت أمامي صورتها على الشاشة وسمعت صوتها تخنقه العبرة:

"لقد قضينا عليه!.. كم اشتقت لخوض المعارك مع الأمير!"

"وأنا كم تمييت أن أعيش هذه المعارك معكم.. ولو في أحلامي!"

"سيد حسام.. أنت تحب السيدة ملاك أليس كذلك؟"

"آآ.. نعم أحبها"

"هل أخبرتها؟"

إبراهيم عباس

١٩٩٩

”سيد حسام، أنا عشت مع الأمير أربع سنوات، عشقته أكثر من نفسي التي كنت أضحي بها في كل معركة أخوضها معه.. من أجله هوا.. ولكني لم أقتلها له يوماً“

رأيت دموعها تسيل من خلف خوذتها وواصلت:

”لم أقتلها له عندما كان معي.. أما الآن وهو في كوكب آخر.. مجرة أخرى.. عالم آخر.. فلما أبكي على كل لحظة مرت بنا دون أن أبوح له بحبي..“

قالتها ثم انفصلت عنى وقبل أن أهبط على الأرض تلقيت ضربة عنيفة في ظهري فسقطت الآلي وقبل أن أعتدل رأيت طبقاً يتجه نحوى بسرعة يحمل علامة مميزة أذكرها، إنها نجمة الحرس الخاص، أعني قواتهم، برزت حول محيط الطبق قواطع مستنة بدأت بالدوران بسرعة وهو يتوجه نحوى، أطلقت العاصفة المضادة للجاذبية لأنغير مساره، أطلق الفتى نسحوه القاطع المزدوج ولكن درعه لم يتأثر، غير اتجاهه وانقض على ملاك، أطلقت عليه القذيفة فامتصها الدرع وأطلقت عليها في المقابل صاعقة شلت حركتها، وبدأت مركبتها بالسقوط!

هناك

بادرها بأشعة أحاطتها بمجال مغناطيسي وسحبها خلفه وانطلق بسرعة للأعلى.. نحو الفضاء.. ركضت بسرعة، قفزت بالألي ليتّحـمـ بـمـركـبـتهـ وـانـطـلـقـتـ خـلـفـهـ بـأـقـصـىـ سـرـعـةـ لـإنـقـادـ مـلاـكـ.

حاول الباقيون اللحاق بي، ولكن مركباتهم تقهرت بعد أن غادرنا الغلاف الجوي واقتمنا ظلمة الفضاء، فهي لا تحتمل اختلال الضغط ونقص الأكسجين على ارتفاعات تتجاوز الأربعين كيلومتر. خطة جهنمية! يعلمون أنني سأذهب لنجد ملاك، فأرادوا بإبعادي عن الأرض، مصدر وقود وأسلحة الآلي، وفي نفس الوقت التخلص من مساعدة السلاحين المزدوج والملاحي.. والاستفراد بي في الفضاء! لحقت به، أخشى أن أطلق عليه رعد الفضاء فأصيب ملاك بالأذى! انفصلت بالألي عن المركبة لأحيطه من الجهتين، أطلقت عليه الرشاش الصاهن، فبررت تلك المستنات وانقض على المركبة ليحطم جناحها وجزءاً من ذيلها ويدمر أحد محركاتها، اختل توازن المركبة، أطلقت عليه الصحن الدوار من الجناح الآخر ولكنه لم يؤثر في الطبق الذي ارتبط بها ليرغمه على التوغل أكثر في مجال الجاذبية والسقوط نحو الأرض؟ افتح الطبق أخيراً فierz منه عملاق آلي وخرجت ذراعاه من الدرعين المستنيين الذين كانوا يغلفانه وهجم علي ووجه شفاته المسنة نحوي مباشرة بعد أن أحكم قبضتي على رقبة الآلي.

ابراهيم عباس

انطلقت الأشعة من قرنبيه وعينيه نحوني فتشلت أجهزة التحكم عندي. اندفع بي نحو الأرض وبدأت قواطعه بالدوران لتحطمها وجه الآلي، رأيتها أمامي مباشرة لا يفصلني عنها سوى زجاج الكابينة. ذلك الزجاج لم يحتمل القواطع فانطلقت فرقعة هائلة داخل الكابينة عندما تحطم الزجاج، ورأيت القواطع الدوارة تقترب مني، إنها نهايتي! ولكن ملاك بترت لحظة يأسى، توقفت إشعاعات الوحش وحركة قواطعه فجأة، ورأيت حفارات السلاح الثاقب تبرز من صدر الوحش بعد أن هجمت عليه ملاك من ظهره في محاولة يائسة نجحت بسبب انهماكه في تحطمها بعد أن انكشفت قوتها. تدخل ملاك تأثير ثانية واحدة، القواطع توقفت في اللحظة التي بلغ أحدها صدري وشطر عدداً من أضلاعه، انفجرت الدماء في كل مكان، وشعرت بالشلل في نصف الأيسر، تاهيك عن الألم، إن كنت سأموت الآن لا محالة لن أترك ملاك تحت رحمة ذلك الوحش، بدأت أشعر بالدوار وأحاول التحكم بالآلي بصعوبة بيدي اليمنى فقط، أطلقت قبضتي الثاقبة لتحطم رأسه يتبعها رعد الفضاء، ولكنه اندفع نحوني، وأغلق درعه بقوة على ذراع الآلي وتوجه! قرر أن ينفجر معه، حاولت أن أخلص ذراع الآلي بلا فائدة، يجب أن أتصرف بسرعة!

هناك

أطلقت الرزقة المزدوجة نحو ذراع الآلي التي علقت داخل درع الوحش لأبترها واتخلص منه، دفعت نفسى في الفضاء نحو ملاك، أمسكت بمركبتها في اللحظة التي دوى فيها الانفجار العنيف ليدفعنا بسرعة نحو الصخور لحظات تفصلنا عن الارتطام.. ومحركات ملاك دمرها الانفجار واحتلال الضغط. أقحمت يد الآلي السليمة في حفار مركبتها والتجمت بها وأطلقت العاصفة المضادة للجاذبية بأقصى طاقتها نحو الأرض لتجنب الاصطدام..

ومرة أخرى نجونا بأعجوبة!

أصبح الآلي عبارة عن كتلة متحطمة بين الصخور والبحر، وأصبحت أنا جثة تطلق أنفاسها الأخيرة بداخله، هبت إلى ملاك، انهارت عندما رأته بهذه الحالة وقد برزت أضلاعه المحطمة حملتني خارج الكابينة، خلعت خوذتها وخوذتي وأسندت رأسي على حجرها فوق يد الآلي العملاقة. إنها اللحظات الأخيرة، لن أدعها تمرّ بصمت، بالرغم من انقطاع نفسي والدماء التي تملأ فمي ابسمت لها:

"ملاك.. إنت اللي صممت كل شئ في هذا العالم صبح؟"

إبراهيم عباس

أجبتني بابتسامتها التي طفت فوق دموعها وأنفها المستور  
فواصلت:

"كل شيء.. كل شيء حتى شكري؟"

"كل اللي شفته هنا ولا شيء، مجرد استقبال بسيط  
جداً، أحقق لك فيه كل شيء اتمنيته في حياتك!"

"يعني هذا كمان مو شكري؟"

هزت رأسها نفياً وهي تقول:

"كان لازم أظهر لك بشكل تقدر تستوعبه"

"طلب لو إنت اللي صمممت كل شيء، من فين طلعت لنا كل  
هذا المصائب؟ من اللي مصر إنه يقتلني بكل شراسة  
ويبعدني عنك؟"

"الأستاذ خالد وزوجته، الوحدين اللي يقدروا يتدخلوا  
في هذا العالم، كل همهم إنك ترجع لأنفك مرام.. وفيه  
الأخير نجحوا.. وفشلـت أنا!"

هناك

أشعر بروحى تغادرنى مع أنفاسى، لن أضيع ما تبقى من لحظات  
في أسئلتي، سأعرف إجاباتها قريباً على أية حال:

"ملاك.. أحبك"

انفجرت بالبكاء وهي تحضرن رأسي:

"وأنا يا حسام أموت من غيرك، أرجوك لا تروح  
وتسيني"

"ملاك، لو لا إني شايل هم أمي وأختي ما كان اترددت  
لحظة إني أبقى هنا معاك"

"يعنى خلاص؟"

"باقعد معاكِ لآخر لحظة"

ارتفع نحيبها وهي تتقول..

"إحنا الآن في آخر لحظة يا حسام"

صعقتنى عبارتها، هذه آخر فرصة لكي لأعود إلى عالمي، أو أبقى  
بجوار ملاك للأبد

إبراهيم عباس

"ملالك.. أكيد فيه طريقة نكون مع بعض؟"

"حسام، لو ما رجعت الآن ما حتقدر ترجع؟"

ملالك التي خاطرت بحياتها أكثر من مرة لإنقاذني، تسلمني الآن  
للموت، خاطرت بحياتها من أجل لحظات قليلة تعيشها بقريبي!  
مددت يدي لا إرادياً وتناولت القلم، القلم الذي بدأت به قصتي..  
سأدون به آخر عباراتها، ولكن ليس على الورق، وإنما على قلبي!

احاطت ملالك يدي بيديها وهي تمسلك القلم، غرسته بين أضلاع  
صدرى المحطمة حتى شعرت بطرفه المدبب على جدار قلبي  
وهرفت:

"حسام.. أحبك يا حسام!"

كان رأس القلم قد اختفى داخل قلبي عندما نطقـت كلمة "أحبك"  
شعرت به ينفرس في أعماقه، يطلب منه التوقف عن الخفقان  
هنا، ليعاود الخفقان في عالمي الآخر!

هناك

أخذتني ملاك في صدرها، أشعر بدقائق قلبها تتتسارع مع تباطؤ  
دقائق قلبي، وناحت على دموعها في صمت وأنا ألفظ نفسي  
الأخير، رأيت السيد خالد يراقبني من بعيد يمسك بكتفي زوجته  
المنهارة ويشاركها بكاءها.. دموعهم تترجماني أن اعتني بمرام..

هذه آخر لحظة قبل أن تقصلني العوالم عن ملاك.. وهذا آخر  
ما قلته.. وما قالته..

"أحبك يا ملاك..!"

"حاستاك يا حسام.. لا تتأخر علي.. أرجوك!"

ابراهيم عباس

هُنَاكَ

(11)

سأعود إلى هُنَاكَ..!

ابراهيم عباس

هناك

قلم ..

بلاستيكي هذه المرة ..

أخذته من مرام عندما زارتني في المستشفى هذا الصباح قبل أن تذهب إلى كليةها. استغرقتُ أكثر من ساعة وأنا أجاهد لكتابه هذين السطرين. يدي ترتعش، بالكاد تقوى على ضغطه على الورق.. وها أنا أكتب أولى كلماتي:

لقدت عدت ..

حدث من هناك!

وتذكرت.. كل شيء!

الآن أستطيع أن أخبركم بقصتي، تذكرتها بتفاصيلها وحداخيرها.

بدأت قصتي في اللحظة التي انتقلت فيها من هنا إلى هناك. يوم السبت، الأول من شهر نوفمبر عام ألفين وأربعين عشر.

ابراهيم عباس

وعدت أمي بأن أوصلها لحفل الزفاف، تأخرت عليها كعادتي، وعاتبته كعادتها .. انطلقت بها بأقصى سرعة لأكفر عن تأخري، موقف تكرر كثيراً، كل مرة كنت أسبق الزمن، أتجاوز صنوف السيارات من اليمين والشمال، وأطمئن أمي كلما وبختني، فإنها محترف لا يُشق له غبار. وفي إحدى تلك التجاوزات، اعترضت طريقي سيارة عائلية، تمشي في المسار الأيسر بالسرعة القانونية، أو تزيد قليلاً، ولكن السرعة القانونية لا تكفي المحترفين أمثالـي! بدأت بإزهاجه بالإضاءة العالية وبالالتصاق بسيارته ليفسح لي.. بلا هائدة، لا يوجد مجال لتجاوزه من الجهة اليسرى بسبب أعمال الحفريات، فكان لا بد من تجاوزه من الجهة اليمنى. انحرفت بدون مقدمات نحو اليمين، لا مرق بسياري بين هذا العnid وصف الشاحنات بالرغم من ضيق المسافة، زدت من سرعتي لتجاوزه، وانطلقت.. ولكن متهوراً آخر كان قد هرر أن يتجاوز صنف الشاحنات من يمينها، فاضطررت الشاحنة التي أمامي أن تتحرف لليسار وتkick فراملها بكل قوة لتجنب الاصطدام بذلك الحتير الذي مال على مسارها بعد أن تجاوزها وأجبرها على التوقف.. وأجبرنا نحن على الارتطام!

هناك

جميع هذه التفاصيل حدثت في مدة لم تتجاوز عشر ثوان، أذكر كل جزء من الثانية فيها كمشهد كامل بالحركة البطيئة! تلك المسافة التي بالكاد تكفي لمرور سيارتي كالسهم بين الشاحنة والسيارة العائلية تقلصت للنصف، وانطلقت كوابح الشاحنة في وجهي وتصاعدت الأدخنة من إطاراتها، صرخت أمي "يالله" ثم التهمتها مؤخرة الشاحنة مع النصف الأيمن من سيارتي .. وجزء من جسدي!

رحمة الله عليك يا أمي .. أنا قاتلتك! اللعنة على التهور! كل متهور يتباهى بمقامراته التي ينفذ منها بسهولة، لا يعلم أن في انتظاره دائمًا مغامرة لن يستطيع أن يتباهى بها أمام أحد. هذه المغامرة بالذات تأتي بلا مقدمات، يحسبها لحظة عابرة، إحدى الرسائل التي يرسلها بعث من هاتفه وهو يقود السيارة بثلاثة أصابع ونصف عين، وعشرون تركيز، إحدى التجاوزات والمناورات الروتينية بين السيارات، إحدى المرات التي يسابق فيها الجميع ليختصر خمس دقائق في طريقه إلى الاستراحة التي يضيع فيها ساعات عمره. واحدة من تلك المرات قد تكون المغامرة الفاضلية، قد تكون آخر لحظات التهور.. قد تكون آخر لحظات الحياة!

ومع آخر لحظات حياتي.. بدأت قصتي، هشم الحادث الجهة اليمنى من ججمتي، وعددًا من ضلوعي، وكل عظمة في يدي اليمنى.. مزق الحديد بطني وجزءاً من أمعائي.. لم يتخيّل أحد من الذين تجمّهروا حولي أن تلك الجثة قد تعود للحياة يوماً. عاشر رجال الإسعاف لشق طريقهم عبر حشود المتطفلين الذين انهمكوا في تصوير سيارتي الملتصقة بالشاحنة، وتصوير أشلاءٍ، كادوا أن يفطّلوني بالجرائد لو لا ذلك النبض الخسيس الذي فضحني. ولكنّه توقف وأنا في الإسعاف، توقفت دقات قلبي، وتوقف تدفق الدماء في عروقي، وبدأ دماغي في العد التنازلي عندما انقطع عنه الأكسجين.

سبعين دقيقة هي المدة التي تستطيع أن تحتملها خلايا الدماغ بدون أكسجين قبل أن تتلف وتتليّف. سبع دقائق من المحاولات اليائسة لإنعاش قلبي، انتهت بالصعقات الكهربائية، وقد حكّيت لكم كل ما حصل لي خلال هذه الدقائق، من اللحظة التي تراخي ارتباط روحِي بهذا الجسد، وانتقلت إلى عالم آخر.. هناك.. حتى اللحظة الأخيرة الذي تلقى قلبي فيها الصعقـة الكهربـائية وعاد للخفـقان ليـنتزعـني من هـنـاكـ، من بين أحـضـانـ مـلـاكـ، ويـلـقـيـ بيـ إـلـىـ هـنـاكـ مـرـةـ آخـرىـ.

مُناك

من تكون ملائكة؟ هل يعقل أن تكون هذه الحورية حقيقة؟ أم مجرد سراب أو همني به عقلي الباطن؟ هل علمت أنني الفظ أنساسي في الحادث، فجهزت لي ذلك العالم؟ هل صممته وجهزته فقط لاستقبالني وإعدادي نفسياً لتقبل حقيقة الموت؟ فعلاً لقد كان عالماً بين الحياة والموت يحقق كل أمنية تمنيتها في حياتي يجعلني أعيشها بأدق تفاصيلها. لم تستطع ملائكة تخبرني بالحقيقة لتجنبني الصدمة التي قد تقطع آخر أمل لعودتي إلى حياتي، فالروح لا تعاود الجسد بعد انقطاع الرجاء. كانت تتمسني في نفس الوقت أن أبي بجوارها للأبد. لم تكن روحي ستتردد لحظة واحدة في البقاء هناك لولا قلقى على أهلي، على اختي، وأمي التي لم أكن أعلم أنها سبقتني إلى هناك والتقت بأبي.. السيد خالد!

خالد مدنی

أقسم أنني شعرت أنه هو وأن السيدة التي معه هي أمي، ذلك الحنان لا يغيرهما تغير الأجساد التي تخلفه! استماتت ملائكة لتبقيني بجوارها بعد أن انتظرتني طوال هذه السنين، ولكن أبي وأمي كانوا يتمزقان حزناً وقلقاً على مرام.

كان الجميع يعلمون أن فرصتي في النجاة من ذلك الحادث لا تكاد تذكر، وأنني حتى وإن نجوت فسأعيش بعده من الإعاقات قد تجعلني عالة على أخي بدلاً من أن أكون عائلاً لها. ولكن أبي تمسك بذلك الأمل المستحيل، بالذات بعد أن لحقت به أمي.

لم أستقبل خبر وفاة أمي بالحزن الذي يليق بهكذا مصيبة، فقد كنت معها منذ قليل! تجربتي أزالت الحاجز بين الحياة والموت، نحن نخشى الموت لأننا لم نمشيه بعد، نخشاه كما نخشي كل مجهول. نحزن لفراق الأموات، ولكنني كنت بصحبتهم، رأيتهم في نعيم يجعلني أفرح لهم، وأحزن على من لم يلحق بهم، إذا كان الحزن على وفاتهم، فحياتنا هي الموت بالنسبة لحياتهم، وإذا كان الحزن لفراقهم، فهناك من لا نكاد نراهم وهم لا يزالون بيننا! يغادرون حياتنا دون أن يفقدوا حياتهم! الموت ليس فراغاً.. ولكن الفراق هو الموت!

استعدتُ سيطرتي على أنا ملي، وعلى ذهني بالتدريج، استغرقت ساعات لكتابة السطور الأولى ثم استرسلت، لم أتوقف حتى كتبت كل شئ حصل لي هناك بكل التفاصيل.

هناك

شعرت بطاقة عجيبة تدب في أوصالي، رقدت على هذا السرير ثلاثة أشهر، قضيت نصفها فيما يسمى فيجيبياتيف ستيت، حالة من فقدان الوعي السباتي لا يتجاوز الأمل في شفائها الإيمان بقدرات الله سبحانه ومجازاته. لم يصدق الأطباء الذين رأوا الأشعة المقطعيّة لدماغي اليوم أنه هذا الدماغ هو نفس الدماغ الذي تجاوزت فيه نسبة التلف خمسة وعشرون في المائة قبل بضعة أشهر. معجزة حقيقية، فخلايا الدماغ التالفة لا تتجدد، ولكن دماغي الآن يعمل، وبكفاءة عالية وتحسن مضطرداً

قبل ثلاثة أيام فتحت عيني ورأيت ما حولي لأول مرة، وبالامس استطعت أن أتناول أول وجبة بعد أن كان الجولوكوز غذائي الحصري. واليوم نطقت أولى كلماتي،وها أنا الآن أحاول النهوذ وإنعاش عضلاتي الضامرة، سحبت ساقي التي تست المشي، أقيتها على الأرض، واستجمعت رقم كل عضلة في جسمي لأنهض، ترتحت في خطواتي، نظرت إلى نفسي في مرآة الحمام.. من هذا؟ لا أعرفه؟ لم أخسر وسامتي وعضلاتي المفتولة التي فرحت بها هناك فحسب، وإنما خسرت معها نصف وزني، وجزءاً من وجهي، لحسن الحظ أن ذلك التشوه في وجهي لم يُفقدني عيني.

ابراهيم عباس

لقد أجروا عدة عمليات تجميلية.. أو بالأصح ترقيعية لجمجمتي وجلد وجهي فأصبح أشبه بقناع مسخ. الجلد المراقع البشع كان يغطي جبهتي ورأسني من الجهة اليمنى، تلاشى حاجبي وجزء من شعري، ليس فقط رأسي، فصدري وبطني وأجزاء من يدي تقطعت برقع الجلد المكرمش اللامع الذي خلفته ندبات الحادث وأثار العمليات.. دخلت المرضة وصُنعت عندما رأته واقفاً:

"Mr. Hosam! What are you doing? You are not supposed to leave your bed!"

لم أهتم وقتها سوى بمغادرة المستشفى..

"I am feeling much better, I think I am ready to leave the hospital!"

تناولتني من ذراعي لتساعدني على العودة إلى السرير وهي تقول:

"You can't leave Mr. Hosam, your health conditions aren't stable yet, the consultants still need to analyze your situation"

هناك

"Well, I've just survived a fatal accident, going home wont kill me for sure"

انتبهت للتو أني كنت أتحدث معها بلهجة أمريكية سلسة، لا تمت بصلة لإنجليزية المسعدة التي كنت أتأثرها قبل الحادث، هذه هي اللهجة التي كنت أتحدث بها.. هناك

فأصبت الممرضة درجة حراري وضغط دمي بتلقائية، وناولتني الأدوية التي تزيد من سيولة الدم ودواء لتسكين الحرارة ودواء لتخفيض ضغط الدم، لقد كانت حراري ٢٨ درجة، وضغطني يتجاوز  $150/100$  ودقات قلبي تتجاوز ٩٠ دقة في الدقيقة، كلها معدلات مرتفعة.

وصلت وقتها مرام ورأته جالساً على السرير فألقت بالأكياس من يدها وانطلقت نحوه لتضمني:

"حساااام!! يالله ماني مصدقة عيني !! الدكتورة قالوا إنك مستحيل تقوم من السرير إلا بمعجزة.. الحمدللله!!  
الحمدللله!!"

تأملتها، هذه الطفلة التي تركت كل النعيم وعدت لأنقذها من الدنيا ووحشها ..

"حسام.. شوف إش جبـت لكـ، دجاج البـيك حـرـاق اللي  
تموت فـيهـ! وكـمان جـبـت لكـ شـويـة مـلـابـس بـدل روـبـ  
الـمـسـتشـفـي أبو أـزـهـار دـاـاـ تعالـ أـلـبـسـكـ حاجـة عـدـلـةـ! بـسـ  
أـولـ غـمـضـ عـيـنـكـ، عـنـدي لكـ مـفـاجـأـةـ!"

أغمضـت عـيـنـي نـزـولاـً عندـ أوـامـرـهاـ، أحـسـستـ بـأنـامـلـهاـ تـعـدـلـ  
هـنـدـامـ شـعـرـيـ منـ الجـهـةـ الـيـسـرىـ، أـظـلـنـهاـ تـحـاـوـلـ إـخـفـاءـ إـصـابـتـيـ  
وـحـاجـبـيـ المـشـوـهـ، ثـمـ وـضـعـتـ قـبـةـ عـلـىـ رـأـسـيـ:

"هـاهـ إـشـ رـأـيـكـ؟ تـرـاهـ كـابـ أـصـليـ جـبـتـهـ منـ سـتـورـ الإـتـحـادـ  
موـ منـ سـوقـ الشـاطـئـ!"

لمـ أـسـتـطـعـ مـقـاـوـمـةـ دـمـوعـيـ وـأـنـاـ أـرـاقـبـهـاـ تـخـرـجـ باـقـيـ الـلـابـسـ منـ  
الـكـيـسـ، تـمـزـقـ قـلـبـيـ وـأـنـظـرـ لـعـينـيـهاـ وـأـقـولـ:

"مراـمـ... بـابـاـ وـمـاـماـ يـسـلـمـواـ عـلـيـكـ"

انـشـلتـ حـرـكـتـهـاـ وـرـفـعـتـ وـجـهـهـاـ المـصـعـوقـ نـحـويـ وـنـزـفـتـ دـمـوعـهـاـ  
بـيـطـءـ وـهـيـ تـقـوـلـ:

هناك

”حسام!! لا تقول كذا!! ما فيك إلا العافية إن شاء الله!“  
إنت مررت بظروف صعبة ودماغك تأثر من الحادث،  
لكن أhee الحمد لله صحتك بتتحسن بشكل أدهش كل  
الدكاترة“

”مرام.. أنا باتكلم من جداً أنا شفت بابا وماما، وجلست  
معاهم وكلمتهم.. زي ما أنا جالس معاكِ وبأكلمك  
دحين!.. بابا بيقول إنك مرة وحشتيه، وإنك أكيد كيرتِ  
وصرتِ عروسة!“

انهارت أمامي، بالكاد ميزيت كلماتها من شهقاتها:

”حسام.. أنا نجوت من الموت بأعجوبة زييك بالضبط،  
يوم الحادث اتجننت وأنا أدق عليك وما ترد، بعدين رد  
علي واحد يقول لي بلغوا أهل صاحب الجوال إنه صار  
عليه حادث في الخط السريع، خرجت زي المجنونة  
حافية لأور على تاكمي في نص الليل، رحت مكان  
الحادث ما لقيت غير السيارة والدم والناس تقول الله  
يرحمهم الله يرحمهم!“

صمتت قليلاً.. سمحت لي بمشاركة البكاء وواصلت:

ما أعرف كيف وصلت مستشفى الملك فهد لما قالوا لي  
 إنكم هناك.. قعدت أجري وأناديكم في الطوارئ..  
 شفتها يا حسام، مقطاية على النقالة، عبأيتها باينة من  
 تحت الغطاء والدم يقطر تحتها.. وشفتك وهم يجرؤوا  
 عليك من غرفة لغرفة، محمد راضي يطمئني، ثلاثة شهور  
 يا حسام وأنا مالي أمل غير الله، ما في دكتور طمني،  
 أول كانوا يقولوا إنه إحتمال إنك تعيش ضئيل جداً،  
 بعدين صاروا يقولوا إنه مخك تالف وتحتظر في الغيبوبة  
 بقية عمرك، وبعدين صاروا يقولوا إنك حتى لو صحيت  
 رح تعيش مشلول.. وأهه.. إنت جالس قدامي ما فيك  
 غير العافية، وكمان بتقل لي سلام بابا وماما، مهما  
 شكرت ربنا ما رح يكفي يا حسام

أخذت رأسها في حضني لترغب باقي دموعها، صغيرتي المسكينة  
 تعذبت أكثر مني، ألم الجسد أهون من ألم القلب بكثيراً مساحت  
 باقي دموعها، سأنسيها كل ما عانته، هذا السبب الذي أعادني  
 لعالمي، هذا ما أعيش لأجله الآن:

هناك

"مرام، بابا ومساما وصوّني عليكِ، من الآن وصاعداً  
البكاء ممنوع مفهوم؟ على فكرة أنا ما كنت في غيبة  
أبداً، كنت عايش في عالم ثانٍ، بس هذى يبغالها جلسة  
مطولة جداً، المهم دحين خليني أغير الروب العبيط دا  
وأهجم على الحرّاق قبل لا يبرد!"

اندهشت مرام عندما رأتني أقفز برشاقة وأتناول الملابس وأنتجه  
للحمام، فعلاً لقد استعدت معظم لياقتي، شئ غريب آخر  
حصل.. ملابسي لم تكن مقاسى! أذكر هذا الجينز وهذا  
القميص جيداً، أستطيع أن أتفهم أنها اتسعت علي بسبب الوزن  
الذي خسرته أثناء الفيبيوه، ولكن الجينز كان قصيراً بعض  
الشئ.. أو بالأصح أنا أصبحت أطول! عظامي تسمو بشكل  
مضطرب مخالفة قوانين البلوغ! عدت لمرام، تناولت معها وجبة  
البيك، أعرف أتنى نسفتها لوحدي، فهي لم تضع في فمها سوى  
حبات من البطاطا، واسترسلت في سرد قصة حياتها في الثلاثة  
أشهر التي غبت فيها عن الوعي.

طرق الباب واستأند شاب يرتدي زي الممرضين الأزرق ويادرني  
بالتحية عندما دعوه للدخول وكأنه يعرقني منذ زمن:

"حسام! كيف حالك يا وحش؟"

ابراهيم عباس

"أهلاً وسهلاً يا دكتور افضل!"

"بالعافية، هاه طمني كيفكاليوم؟"

نهضت مرأم وودعتني لتحقق بسماكتها، وتركتنى مع الدكتور  
الذى بادرنى:

"طبعاً أنا أعرفك وانت ما تعرفني.. أنا يا سيدى إياد  
الزايدى متخرج من سنتين وطلبت ينقلونى لمستشفى  
الملك فهد بس عشانك لا"

"تشربنا يا دكتور إياد.."

"إياد حاف لو سمحت.. اعتبرنى صاحبك يا سيدى"

"طيب يا إياد حاف، ما قلت لي ليش طلبت نقل لهاـنا  
عشانـي؟"

"أسمع يا حسام، إنت حالتك ما تكررت في تاريخ الطب،  
بعد الحادث بشهر تقريباً انتشرت قضتك بين الدكاترة،  
وأنا دبرت ستين واسطة بس عشان أقدر أتابع حالتك"

"إـش الشـي العـجـيب فيـهـ حـالـتـي؟"

هناك

"حسام، إنت نفذت من الموت بأعجوبة، دماغك كان  
تالف، وكل الدكتاترة توقعوا إنك تموت في خلال أيام، أو  
في أحسن الأحوال إنك تدخل في غيبوبة دائمة"

ألقي نظرة سريعة على معدلاتي الحيوية وواصل:

"فيه شيء في دماغك اتغير بعد الحادث! الخلايا التالفة  
في الدماغ اتجددت، وهذا عمرها ما حصلت في  
التاريخ! مو بس دماغك، كل جسمك! عظامك التأمت  
بسرعة خرافية، جروحك اتعافت، الأسبوع الماضي لما  
سوينا كشف نظر.. كان نظرك ستة على ستة، مع إنه  
نظرك المفروض ناقص ثلث درجات!"

استوعبت للتو أنتي أرى كل شئ بوضوح ويدون نظاري السميكة!  
وواصل الدكتور إياد الزايدى شرحه بحماس:

"خلاياك في نشاط وتجدد دائم، حرارتك وضغطك  
مرتفعين طول الوقت ومع ذلك جسمك مو متأثر!ـ  
تحليلي الشخصي إنه حصلت لك ثورة جذعية.. يعني  
خلايا جسمك صارت كلها جذعية! تجدد بشكل  
مستمر.. إنت يا حسام تحولت إلى بطل خارق، حتى  
الدكتاترة أطلقوا عليك لقب السلمندر البشري!"

إبراهيم عباس

ـ تحلياك منطقى جداً يا إياد.. لكنه مو صحيح..  
ـ الموضوع ماله أي علاقة بالخلايا الجذعية!ـ

ـ كيف عرفت؟ إنت دوبك صحبيت من غيبوبة ثلاثة  
ـ شهور

ـ التغيير اللي حصل كله في داخل روحي.. أقصد عقلي  
ـ الباطن، العقل الباطن قدراته مالها حدود، يتحكم في  
ـ كل شي فينا، في داخل كل واحد فينا بطل خارق ما  
ـ يقدر يتحرر وينطلق إلا لو تخلصنا من المسلمات  
ـ والحدود اللي نوهم نفسنا بيها!ـ

ـ شكلك متأثر بكتب الطاقة الروحية والكونية وقانون  
ـ الجذب.. هذي الأشياء كلها افتراضية مالها أي أساس  
ـ علمي!

ـ صدقتي مالها أي علاقة بكل هذي الأشياء.. إياد أنا  
ـ قلبي توقف لمدة سبع دقائق.. وانتقل وجدياني وإدراكي  
ـ لعالم ثانٍ عشت فيه أسبوع كامل قبل لا أرجع!

ـ سمعت عن الأحلام والإيحاءات أثناء الغيبوبة و..

هناك

"مو أحلام ولا إيحاءات.. أنا كنت عايش بشحومي  
ولحمي في عالم ثانٍ! عالم واقعي أكثر من عالمنا هذا!  
ملموس وواضح لدرجة إني حاسس إنه حياتي الحقيقية  
بالنسبة له مجرد حلم؛ أنا في هذه اللحظة وأنا شايفك  
قدامي ماني حاسس بالواقعية بالشكل اللي كنت حاسمه  
وأنا هناك!"

كنت حاقول إنك اتجنت بعد إصابة دماغك في  
الحادث لولا إننا مرينا بتجربة عجيبة أنا وزوجتي  
تخليني أصدق أي شيء، رح أحاول أصدقك، عشان إنت  
كمان تقدر تصدقني لما أحكي لك حكايتها!"

"طيب.. باختصار أنا في خلال الأسبوع اللي عشته  
هناك قابلت أجمل مخلوقة، كأنها حورية من الجنة،  
عرهتنى على ليوناردو دافينتشي وبيتهوفن وبروس لي  
وأقمصت شخصية بطل خارق وحطمت وحش  
الفضاء!.. كله حقيقة مو أحلام!"

تح إيد لفترة.. لم يغلق فمه حتى قلت له:

ابراهيم عباس

يمكن بعتبر كل هذى تهئؤات، لكن كيف تفسر إنني  
تعلمت أكثر من لغة في أثناء غيبوبتي؟!  
Ho imparato  
a parlare Italiano fluentemente, als auch die  
"Deutsche Sprache"

كما توقعت.. فبالإضافة إلى قدرة روحي، أو عقلي الباطن في  
التحكم التام بجسمي واكتسابه للياقة عالية يجعل كل خلية  
داخلي تعمل بكفاءة خارقة، استعدت أيضاً جميع الخبرات التي  
اكتسبتها أثناء وجودي هناك! أعلم أن إرادت لن يفهم عباراتي  
الإيطالية والألمانية، فقط أردت أن أثبت له وجهة نظرى، ولكنه  
حاول أن يجاريني وهو يقول بلهجـة فرنـسـية رـكيـكة وـيـجلسـ أـمـامـيـ  
بـذـهـولـ:

"impossible! J'ai passé toute ma vie juste pour  
apprendre un peu de Français!"

ابتسمـتـ لهـ وأـنـاـ أـقـوـلـ:

"لو المسـأـلةـ طـبـيـةـ بـحـثـةـ كـيفـ تـقـدـرـ تـفـسـرـ إـنـهـ شـخـصـ فيـ  
غـيـبـوـيـةـ يـتـعـلـمـ فـنـونـ جـدـيـدةـ؟ـ أـنـاـ اـتـعـلـمـ أـشـيـاءـ أـثـنـاءـ  
غـيـبـوـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ كـلـ شـيـ تـعـلـمـتـهـ فيـ حـيـاتـيـ"

هناك

نأولته الدفتر الذي دونت عليه كل ما تذكرته في الأيام التي عشتها هناك مع الرسوم التوضيحية المتقنة، ففزت عيناً الدركتور إياد وهو يتقلّل عبر الصفحات ويقرأ بعض العبارات ويتأمل بعض الرسومات:

"أنا سمعت عن حالات اكتسبت مهارات هائلة بعد تعرضها لصعقات كهربائية وحوادث مفاجئة، لكن عمري ما اتخيلت إنه ممكّن توصل لهذه الدرجة لا"

وقفت أمامه وأشارت إلى بنطالي القصير:

"و فوق كل المهارات، ما أعتقد الدكاترة لاحظوا هذا"

"إش هذا؟"

"هذا البنطلون كان على مقاسني قبل الحادث"

"لا لا لا .. مستحيل! أنا ما حاخرج من هنا إلا بعد ما  
أعرف كل شي.. وبالتفصيل!"

شئ ما جعلني أودع كامل ثقتي في الدكتور إياد، قررت أن لا أطلع أحد على تفاصيل تجربتي سوى مرام وإياد الذي أصبح أعز أصدقائي؛ لقد ساعدني على التخلص من ضغوط المستشفى وفريق الاستشاريين الذين كانوا ينونون مصادرة حريتي وتحويلي إلى فار لتجاربهم بسبب حالي التي عجزوا عن فهمها واستيعابها، بُترت أطماعهم في استخلاص دواء الشباب المتجدد من دمي بعد أن استعان إياد بفريق من المحامين القانونيين ليمنعوا أي جهة من إجراء أي فحوصات على دمي. فعاد الفريق الطبي الذي أحضره الجشع من مختلف الدول بخفي حنين. التأمت جميع جراحي وعظامي، لم يبق من الحادث سوى الندبة التي التهمت حاجبي وبضعة أسياخ حديدية في ذراعي..

كان جسمي يتدهق بطاقة عجيبة، أحكمت سيطرتي على عقلي الباطن، انهارت الحواجز بيني وبين أحلامي. أصبحت بنائي رياضية لا تشويها أي شحوم، بالرغم من أن شهيتي للأكل ازدادت وأصبحت أتناول أضعاف كميات الأكل التي كنت أتناولها أيام سمنتي. ازداد طولي ثمانية سنتيمترات خلال أشهر ولا يزال في ازدياد.

هناك

احترفت فنون الدفاع عن النفس، الجيت كوندو بالذات، تركت وظيفتي وشاركت إياً في افتتاح معهد للتدريب على جميع الفنون الإبداعية والتشكيلية والموسيقية والقتالية.. كانت أكاديمية لإعداد الأبطال الخارقين<sup>1</sup> في الماضي كنت أضيع حياتي في التمني، كان سقف آمالي أن أنقص بضع كيلووات من وزني، أو أزيد بضع ريالات إلى دخلي، ولكن بدون مجهود، كنت في أحسن أحوالى أطائع بعض الكتب المحفزة واتحمس معها قليلاً قبل أن أعود إلى كتبى العزيزة وطنجرة الناششوز بالصلصة. كان تدبير المال والمصاريف هو أكبر همومنا، ولكنني افتعلت الآن أن صناعة الثروة هي أسهل خطوة. في الماضي كنا نلعن الفقر دون أن نشعر ونتحرك؛ لو سعى أي فقير بجد، فسيسعى إليه الرزق سعياً فرضاً المحتاج المجتهد في تحقيق النجاح أعلى من فرص الذي التهى بملعقة الذهب في فمه، وسألوا العظام. الحاجة أم الاختراع وأم الإبداع، وأم الإنجاز والنجاح والثراء.. ولكن بشرط: أن تتحرر من شلل التخاذل والكسل والخوف والتردد، أصبحت لا أبالي سوى بسلامة مرام ومستقبلها، أما أنا فحتى الموت لم أعد أخشأه، بل بالعكس! أصبح الموت صديقي، يألفني وألله، أتوق إليه ليعيدني إلى هناك!

إبراهيم عباس

بنيت ثروتي المتواضعة، وبنيت بها بيتنا أنا ومرام في أبحر شمال  
مدينة جدة؛ باختصار حققت جميع أحلامي التي كنت أحلم بها  
قبل أن أذهب إلى هناك.. أما الآن فلم يعد لي سوى حلم واحد،  
أن أعود إليها.. نظرت إلى السماء، أشعر بها تنظر إلى  
وتنتظريني.. ابتسمت لها وأنا أقول..

يوماً ما سأعود إلى هناك..

يوماً ما سأعود إليك يا ملاك!

- النهاية -

